

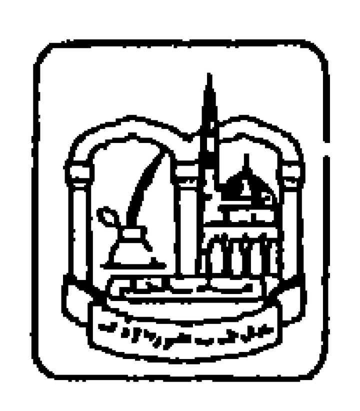
د. عاصم حمدان علي حمدان




بسم الله الرحمن الرحيم

د. عاصم حمدان علي حمدان





من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي
رقم الكتاب [٨٩]

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

ح نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤١٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
حمدان، عاصم حمدان
نحن والآخر
١٨٤ص، ١٧ × ٢٤سم
ردمك ٥ - ١٤ - ٦١٨ - ٩٩٦٠
١ - الغزو الفكري ٢ - الثقافة الإسلامية
٣ - السعودية - المقالات العربية
أ - العنوان - ديوي ٢١٩,٩ - ٢٥٣٥/١٥

رقم الإيداع : ٢٥٣٥/١٥
ردمك : ٥ - ١٤ - ٦١٨ - ٩٩٦٠

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دارالعلم) بجدة
ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية

إخراج وتنفيذ / عبدالحليم عبدالكريم محمد

مقدمة

حينما يتحدد الهدف يأتلق المسار وتستقيم السبيل إليه ولن يكون قارىء هذا الكتاب في عوز إلى بذل جهد كبير لاستنباط حقيقة فصواها وضوح معالم السبيل التي ينتهجها الدكتور عاصم حمدان، فحـواهامؤتلفة تهدي من يسلكها، ومعالمها واضحة تستبين للقارىء دون عناء وسيستشف القارىء قناعة المؤلف في أن المنهج الفكري والنقدي كالشجرة التي يتفيأ ظلالها الناس وتنتظم حياتهم قناعة وسلوكا ولن يتأتى لهذه الشجرة أن تنمو وتكبر في غير تربتها ومناخها ولن تحظى بالرعاية والاهتمام من غير أبنـائها ومن يجنـون ثمارها ليس رفضا لذات الرفض بل حجة يدعمها الدليل المستقى من أفواه وعقول أبناء هذه النظريات ومن عاشوا في كنفها واستظلوا بظلالها فاستشهاد الدكتور عاصم برأي ت.س. إليوت والمتضمن إبراز دور الدين في الحياة للفـرد أو الجماعة لا يقتضي المصادرة على الإبداع الأدبي ولا يقتضي تعارضه مع الدين ولكن المـؤلف يتلمس تأصيل رؤية فكرية مستقاة من العقيدة وتكريس منهج فكـري يفسـر نظرتنا للكون والحياة يستقي مفاهيمه من معين الدين الإسلامي، آزر المؤلف في تعميق قناعته موقف مفكري ونقاد وأدباء الغرب حيال المناهج التي تظهر وتتـوارى بمجرد ظهور منهج جديد فكما ظهرت الكلاسيكية لتمجد التراث الإغريقي وتعكف على شرحه وتفسيره احتجبت عقب ظهور الرومانتيكية التي حاولت العودة إلى الذات والطبيعـة بعناصرها الموحية لتعوض ما أغفلته الكلاسيكية ولذا نجده يستشهد برأي الناقد الإنجليزي جورج واطسون الذي يشير فيه إلى (أن البنيوية في أوج ازدهارها ادعت أنها تفسر جميع الحقائق البشرية أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء ثم جاءت بعد ذلك أفكار شمولية أخرى مماثلة أفكار يونج وتياردي شاردان ومـارشـال مكلوان ونـورثـروب فراي). لذلك نعى المؤلف على بعض النقاد محاولتهم في تطويع العقيدة لإجراءات المنهج الغربي خاصة البنوية والتمحل في التأويل بل ورفض المفهوم العقدي عند اصطدامه وتعارضه مع المنهج البنيوي كما يتجلى في المتابعة الدقيقة للمؤلف في مناقشته لآراء وطروحات محمد أركون وقناعته في استحالة تطبيق مناهج الفكر الغربي على تراثنا والاحتكام إليها في تحليل ودراسة عقيدتنا الإسلامية كقوله في (الديالكتيك المتداعي وآثاره) : «هذه الزمرة تتغافل عن أمر في غاية الأهمية وهو أنه لا يمكننا أن نطبق المقاييس التي هي من نتاج الفكر العربي في هذا العصر على العصور الأوروبية الوسطى مثلا، وهذا أمر لا يختلف عليه أحد وتحكم به بدهيات المنطق وأولياته المعروفة للناس جميعا حتى و إن تباينوا

في منطلقاتهم وتعددت آراؤهم الفكرية والثقافية فكيف إذا سعت الزمرة الأركونية إلى تطبيق الديالكتيك (الماركسي) على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في الفكر الإسلامي، وإذا كان المحتوى العلمي من وجهة نظرها يرتكز أساسا على اللسانيات الحديثة وعلى وجه التحديد لسانيات (نفينست وتشومسكي).

إن بزوغ مثل هذه الدراسة ضرورة ملحة ترتقي إلى مستوى المسؤولية الدينية لتحديد موقفنا واختيار مسارنا في الحياة ونحن نشهد الحالة الفكرية التي تتنازع عالمنا العربي الإسلامي وتقود أدباءه ورجال الفكر بعامة إلى توجهين متناقضين يتوزعان بين التقوقع والانكفاء على الذات، أو التحلل والارتماء في أحضان الغرب مع أننا نتمتع بخصوصية فكرية سامية استمددنا جذورها من مفاهيم العقيدة التي بنت شخصيتنا بقوة وثقة ولم تحل بيننا وبين الاستفادة من معطيات الآخر الحضارية ما لم تتعارض وتصطدم بأساسيات ومفاهيم العقيدة ولا يمثل ذلك لجوءاً للحلول التوفيقية بل يفصح عن جوهر العقيدة الإسلامية ووسطيتها القائمة على احترام الذات والاستفادة من إنجازات الآخر.

كما أن هذه الدراسة تمثل محاولة الاحتكام إلى الذات دون عرض عقيدتنا وفكرنا في محاكم الآخر ليصدر حكمه على توجهنا من خلال أيديولوجيته ورؤاه التي نمت في تربة ومناخ يتباينان عن تربتنا ومناخنا، وقادته مصالح وتطلعات استعمارية ذقنا ويلاتها واستلابها ردحا من الزمن، ولازلنا نتجرع بقايا غصصها ومخلفاتها إلى يومنا هذا إذ لا يزال الحكم على الإنسان العربي والمسلم انطباعيا يخضع لتقييم الدراسات الاستشراقية التي بثتها تطلعات استعمارية صورت عقيدتنا الإسلامية وعالمنا العربي في صور تخول السيطرة والهيمنة عليه لتقليم أظافره ونقله من عالم البدائية إلى حضارة الغرب فكانت الذريعة التي أفضت إلى صب خيرات العالم العربي والإسلامي في خزائن الغرب وتركه يلوك البقايا والفتات في صورة مشوهة مزدراة نتيجة إلصاق تهم الإرهاب والهمجية به لتفسير محاولاته التحررية وتبرير الهيمنة عليه.

لذا كان من الغريب الركون إلى المستشرقين والغرب بعامة في استقاء الحكم علينا وقد تغلف الحكم بغلالة البحث عن مصالحنا واستبطن فكرة السيطرة والاستلاب والتشويه وبنفس القدر كان من الخطأ أن نلوذ باستجلاب أيديولوجية غربية لتحدد مسار فكرنا وحياتنا ونحن نملك عقيدة ناصعة ومؤتلقة نتعامل من خلالها بكل وضوح وثقة.

وإن هذه الدراسة محاولة جادة للخروج من مأزق التضاؤل والتأقزم بالارتماء في أحضان الآخر واستلهام فلسفتنا من حقله إلى الشعور بقيمة الذات واحترامها من خلال تبني نظرية فكرية نستمد أصولها وقيمها من مفاهيم العقيدة مستفيدة من معطيات العلم والمعرفة أيا كان مصدرها فيما لا يند عن المسار الإسلامي ولا يخالف قيمه وأعرافه مستفيدة من نكوص وتراجع دعاة التجديد في الغرب وخير ما يمثلهم

ت.س. إليوت وعودتهم إلى استلهام تراث عقيدتهم كما يشير المؤلف في (الأدب والأيديولوجيا).

والمؤلف مؤهل للتصدي لتأصيل رؤيته الفكرية التي تستمد مقوماتها من مفاهيم العقيدة الإسلامية وتستفيد من معطيات الفكر والثقافة بمدلولها الشامل والفضفاض فلقد تسنى له أن يفتح عينيه على الحروف الأولى للكتابة في مدرسة العلوم الشرعية بجوار مثوى المصطفى صلى الله عليه وسلم وتخرج في قسم اللغة العربية (كلية اللغة العربية) في جامعة أم القرى بجوار الحرم المكي الشريف ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة مانشستر في بريطانيا ليحظى بمتابعة الفكر الغربي عن كثب ويقف على سمات المجتمع الغربي ويتعرف على ملامحه ووشائج العلاقة التي تربط بين أبنـائه ويكتشف نظرته للآخر والمصالح التي تحكم علاقاته بالآخرين وإذعانه لتـأثيـر التغلغـل الصهيـوني في بنيتـه وهياكله السياسية من خلال دراسة نظمه ومؤسساته السياسية وهي مزايا ومناقب أهلت المؤلف لأن يكون من الصفوة الجديرة بمحاولة حث الخطى في سبيل تأصيل منهج يضرب بجذوره في عمق تربة العقيدة الإسـلاميـة ومستفيدا من تعاليمها التي تحض على العلم والعمل بالاطلاع الشامل والمتنـوع القائم على عقد المقارنات لإبراز خصائص هذه العقيدة دون استلاب أو تضاؤل بل بثقة وثبات هيأت لهذه المقالات أن ينتظم شملها ضمن دفتي هذا الكتاب دون أن يعتورها تضارب أو يخل بها اختلاف فوضوح السبيل يفضي إلى الوصول إلى الهدف و تحديد الهدف يحدد معالم السبيل.

د. جميل محمود مغربي

أستاذ مادة النقد في قسم اللغة العربية

جامعة الملك عبدالعزيز ـ جـدة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على عبدك ونبيك الأمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذه الدراسات التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه تختلف في موضوعاتها لأنها كتبت في فترات متباعدة، ولكنه يجمعها هدف واحد وهو كيفية التعامل مع الآخر حضاريا وفكريا وثقافيا، وتزداد أهمية هذا الموضوع من خلال ما نشاهده اليوم بعد انتهاء فترات ما كان يسمى بالحقبة الباردة في العلاقات الدولية، إلى توجه الدول والمجتمعات إلى موضوع هو بؤرة النشاط ومركز الاهتمام ـ ليس فقط من رجال الفكر والثقافة والأدب ولكن أيضا من المؤسسات التنظيمية المسؤولة في جميع بلاد الدنيا ـ هذا الاهتمام ينصب على الحفاظ على الهوية الفكرية والثقافية للأمة ونستطيع أن نضرب مثالا واحدا على ذلك، إن دولة فرنسا تجمعها مع بلدان أوروبا الكثير من المصالح وتلتقي معها في الكثير من الأهداف، ولكن عند مناقشة اتفاقية (الجات) توقفت فرنسا كثيرا عند الموضوع الثقافي، فهي لا تريد غزوا فكريا يتمثل في المسلسلات والبرامج حتى من أقرب الدول إليها سلالة وفكرا، بل إن البرلمان الفرنسي كان يناقش في الآونة الأخيرة بصورة جدّية، يلتقي عندها يمينه ويساره عند ضرورة المحافظة على اللغة الفرنسية وفرضها إجباريا في جميع مراحل التعليم، والوضع لا يختلف كثيرا في بلد مثل المملكة المتحدة البريطانية، فكثير من النقاد الغربيين الإنجليز رفضوا بعبارة صريحة أن يكونوا ضمن ما يسمى بالمستعمرة الثقافية الفرنسية، ويقصدون بذلك ما شاع في هذه الحقبة من مذاهب فكرية أو أدبية، مثل الوجودية والبنيوية وما تفرع منها من مذاهب شكلية مثل الأسلوبية.

ومن بين هؤلاء النقاد الذين قاوموا هذه النزعة التي تحاول السيطرة فكريا وثقافيا الناقد المعروف (جورج واطسن) في كتابه (الفكر الأدبي المعاصر) وظل

الإنجليز لا تغريهم ولا تجذبهم مقولات (جان بول سارتر) ولا (ميشيل فوكو)، ولا (ليفي شتـراوس)، ولكنهم ظلوا يتمسكـون بتـراثهم الكـلاسيكي الإنجليزي ويتمثلونه، ليس لمجرد التمثل وحده، ولكنهم يريدون تعميقه في نفوس الأجيال الشابة الصاعدة، فترى مثلها الأعلى في ملاحم الشاعر المعروف (جفري تشو سر) وفي مسرحيات (وليم شكسبير) الذي لا تزال إلى اليوم بعد مضي قرون طويلة تعـرض مسرحياته فلا يكاد يجد الراغب في مشاهدة هذه المسرحيات مقعدا خاليا لتوافد الناس إلى العاصمة اللندنية ليروا تراجديات (شكسبير)، ولا يزال كتاب القصة من الجيل الطالع يرون في (تشارلز دكنز) مثالا أعلى في التقنية والأسلوب، والسرد، ولعله من الطريف أن نذكر هذه القصة وفيها دلالة عظيمة، لقد قام (جون ميجر) عندما كان وزيرا للخارجية بزيارة للولايات المتحدة الأمريكية، فكان من الموضوعات الرئيسة المطروحة على جدول الأعمال بينه وبين الرئيس الســابق (جـورج بوش) موضـوع غزو المسلسلات الأمريكية للمجتمع البريطاني، لأنه المجتمع الذي يفضل رؤية (كرونيشن استريت) على مسلسلات (هوليود) الفاخرة (دلس وداينستي)، ولا ننسى تلك الدلالة العظيمة التي تمثلت في إهداء رئيسة الوزراء البريطانية السابقة (مارغريت تاتشر) إلى رئيس الوزراء الفرنسي (فرانسوا ميتران) بمناسبة الذكرى المؤية للثورة الفرنسية.

لقد قدمت (تاتشر) من (داونغ استريت) إلى (الإليزية) في فرنسا هدية رمزية تتمثل في قصة الروائي الإنجليزي المعروف (تشارلز دكنز)، ولعلها أرادت أن تقول له : إنه في الوقت الذي كانت فيه باريس قرية صغيرة كانت لندن مدينة تحفل بكل ضروب العلم والثقافة والمعرفة.

هؤلاء القـوم يجمعهم أصل متقارب، وتنتظمهم منظومات سياسية وثقافية واحـدة، ولكن الفكـر والثقـافة شيء آخر تتمسك به الشعوب الأوروبية أشد التمسك، حتى يبرز هويتها، ويميز إطار المفكر لديها، فهل لنا بعد ذلك أن نلوم الذين يدعـون إلى ثقـافـة إسلامية عربية أصيلة في مجالات الفكر والثقافة والأدب، ثقافة لاتتوقف عند الماضي، ولكنها لا تلغيه ولا تزدريه، بل تنطلق منه، وتنظر إلى الأشياء من حولها في هذا العالم من خلال منظاره، ولا يمنعها بعد

ذلك أن تجدد وأن تنفتح انفتاحا واعيا على الثقافات الأخرى، ولكنه ليس انفتاح الانبهار والذوبان والتلاشي بل هو الانفتاح الذي ينمي ما تأصل ويحافظ على الأسس التي يكون في تقويضها خسارة للأمة وضياع لمستقبلها وتيه لمن يريدون أن يسلكوا الطريق لتتحدد أمامهم المعالم بكل وضوح.

وفي الختام..

- **أشكر الزميل والصديق الدكتور جميل مغربي** الذي كتب مقدمة ضافية لهذا المؤلف المتواضع، وأشكر له أيضا مراجعته لأصوله الأولى.

- **وشكر آخر أخص به ابني الزميل الأستاذ مروان قماش** الذي رعى هذا العمل خير رعاية وتابعة خطوة خطوة وبذل من وقته الثمين ما لا يمكن للإنسان أن يبذله ولو في مؤلف له، ولكنه وفاء التلمذة، ونبل الأصل، وكرم الأخلاق، وما أقل المريدين في هذا العصر من أمثال الابن الذي أعتز به، والأخ الذي اعتبره شريكا في هذا العمل وهو ابني مروان قماش.

وصلى الله على سيد خلقه، وشفيع عباده، الرحمة المهداة للعالمين.. جعلنا الله من المتبعين لسنته ومن المهتدين بهديه، ومن المحبين له حبا قلبيا خالصا يقربنا منه في الدار الأخرى في جنات النعيم.

د. عاصم حمدان

الباب الأول

الأدب والأيديولوجيا

الأدب والأيديولوجيا

لم تكن المتعة في الأدب بجميع فنونه هي الهدف الأول والأخير، كما يتصور بعض المنظرين للأدب والنقد في عالمنا العربي وعلى وجه أخص «الحداثيون» منهم، نعم لم تكن هي الهدف عند كثير من أولئك الأدباء الغربيين الذين يعجب بهم دعاة التجديد ضمن دائرة الأدب العربي، ولم يكن القول ـ لمجرد القول ـ ودون أن يكون له ذلك الارتباط القوي بتوجه صاحبه أو منطلقه العقائدي والفكري، لم يكن الأمر كذلك إلا في أذهان من لم يعرفوا من الأدب الغربي إلا صوره وأشكاله الخارجية، وإذا أردنا أن ندلل على ذلك فلن تعوزنا الأدلة أو ينقصنا البرهان، فالمرحلة الثانية من الحياة الفنية لشاعر الإنجليزية الأول «ت.س. إليوت» وهي ما يطلق عليها النقاد مرحلة الغَضَب واليأس والحزن، وهي مرحلة الدعوة للعقيدة عند هذا الشاعر، فلقد اعتنق اليوت الكاثوليكية على طريقة الإنجليز لا على طريقة روما، وتنازل عن جنسيته الأمريكية وتجنس بالجنسية الإنجليزية، وأعلن في الناس أنه لا يقر المبادىء الجمهورية التي تسير عليها الولايات المتحدة وجهر بأنه محافظ يحافظ على التراث الإنساني من التجارب الخطيرة الجديدة، وفي عام ١٩٣٠م طلع على الناس بمجموعة جديدة من القصائد هي «أربعاء أيوب» وحْيُها مُسْتَمدٌ من الرُّوحْ الكاثوليكية، ومن بعدها مسرحية شعرية هي «جريمة قتل في الكاتدرائية» تصوِّرُ مَقْتَل القدِّيس «توماس بيكيتو» في العصور الوسطى.

وهو ـ أي «إليوت» ـ له أيديولوجيته الدينية التي ينطلق منها في كثير من أعماله وخصوصا في عمله المعروف «الأرض الخراب» لذلك هاجمه بعض الشيوعيين والليبراليين العرب الذين يتصورون الحياة دوما من دون عقيدة ومنهاج، فهذا لويس عوض يقول معلقا على كتاب إليوت المعروف «مقالات مختارة»: فهو ـ أي إليوت ـ ينظر إلى الكنيسة نظر الماركسي إلى الدولة

الشيوعية أي يعدها غاية الحضارة ودعامتها الأولى، وهو يخلط بين قيم الدنيا وقيم الدين، حتى ليقحم الكنيسة في أخص شؤون الحياة الشخصية والاجتماعية كضبط النسل مثلا فيقول في «مقالات مختارة»: «إن في هذه المسألة قبل سواها لا مفر للإنسان من أن يستهدي بالمشتغلين بالشؤون الروحية، فنداء الضمير والحكم الشخصي لا يعول عليهما، كذلك ينبغي أن نقدم مشورة القساوسة على مشورة الأطباء بصفة قاطعة لأن مشورة الأطباء مضطربة».

هذه آراء من اتخذه الحداثيون العرب إماما لهم في تجاربهم الشعرية وعدّوا قصيدته «الأرض اليباب» دستورا لا يحيدون عنه، فإما أن يكونوا لم يقرأوه أصلا، وإما أن يكونوا قد قرأوه ولم تمكنهم وسائلهم من كشف ومعرفة ما ترمي إليه قصائده، ونحن هنا لا نحاكم إليوت على ولائه لتراثه، وتمسكه بعقيدته ودعوته الآخرين للاقتداء به، ولكننا نشعر بحسرة وأسى كبيرين على التفريط الذي نجده عند الفئة الحداثية في عالمنا العربي، تفريطها في تراثها، وخجلها من كل ما يمت بصلة لدينها ورموزها التاريخية، ونتعجب من قول بعضهم إن الشعر الذي يتضمن مسحات دينية ويستمد تعابيره من عقيدة الإسلام الصافية مكانه هو منابر الوعظ والإرشاد وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نعتبر إنتاج «إليوت» وخصوصا قصيدته «الأرض الخراب» وهي مملوءة بالتراث الكاثوليكي المسيحي، لماذا لانعدها وعظا وإرشادا ؟ ولماذا هذه الجلبة والضوضاء ؟ ولماذا نحتفي بروايات الكاتب اليهودي العقيدة ـ الألماني الأصل ـ فرانز كافكا وهي روايات كتب بعضها أصلا باللغة اليهودية القديمة «اليدشية» وهي في بنائها تدور على التبشير بميلاد دولة صهيونية دينية ؟ نعم، لماذا نحتفي بهذا الإنتاج الغربي كل الاحتفاء برغم وضوح الروح الدينية فيه، وتشبعه بالأيديولوجيا الخاصة، ثم نهاجم كل عمل روائي في أدبنا تشم فيه رائحة العقيدة والدين ؟

ألا يكون الأولى بنا أن نحتفي بما نجد في ثنايا حقيقة أنفسنا ونستطيع من خلاله الوقوف على هويتنا الشخصية ورموزنا العظيمة التي لا تستطيع الرموز الأخرى أن تشابهها أو حتى مجرد الدنو منها ؟

محوران للأدب :

يقول الناقد الإنجليزي جورج واتسون في كتابه المعروف «الفكر الأدبي المعاصر» : إن البنيوية في أوج ازدهارها ادعت أنها تفسر جميع الحقائق البشرية، أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء ثم جاءت بعد ذلك أفكار شمولية أخرى مماثلة، أفكار «يونج» و «تياردي شاردان»، و «مارشال مكلوان» و «نورثروب فراي».

فمنذ أن حاد العقل الأدبي عن طريقه المعهود نتيجة لانهيار الإيمان بالدين منذ أكثر من قرن مضى حتى الآن وهو يسعى طوال الوقت باحثا عما يستعيض به عن ذلك الإيمان المفقود» هذه هي عبارات واحد من أعمدة النقد الأدبي في الغرب، ولا يستطيع أحد أن يوجه إليه تهمة القصور في فهم التيارات الأدبية الغربية وما تنطوى عليه من أيديولوجيات، كما لا يمكن أن يصمه أحد بتهمة التحامل على الفكر الأدبي الغربي، لأنه ينتمي إلى تلك البيئة الفكرية وهو أحرص ما يكون على دفع التخرّصات حول القضايا المتصلة بها إن وجد نقدا لا يتصل بسبب من الأسباب الموضوعية العلمية المتوخاة في عملية النقد هذه.

نحن إذن إزاء محورين هامين يمكن من خلالهما النظر إلى الأدب الغربي وما يتصل به من أيديولوجية لم ينكرها عليه النقاد من أبنائه أو المنتمين إلى دوائره انتماء حقيقيا.

المحور الأول هو «الدين» حيث كان له حضور قوي وبارز في الآثار الأدبية المشهورة عالميا كما دللنا عليه من خلال أعمال الأديب الإنجليزي المؤمن بمسيحيته إيماناً قوياً وهو «ت.س. إليوت».

أما المحور الثاني فهو المتصل بالمذاهب الأدبية الغربية التي دعاها الناقد الإنجليزي جورج واتسون بالأفكار الشمولية، وعزا تتابع ظهور هذه المذاهب إلى سبب هام وجوهري وهو انهيار الإيمان بالدين، وبعبارة أخرى أن هذه المذاهب لا يمكن تجريدها من الأيديولوجية كما يدعي البعض في عالمنا العربي، بل هي تحمل الأيديولوجيا مما جعل «واتسون» يؤكد أن أنصار هذه

المذاهب زعموا أنها قادرة على تفسير كل شيء، والذي يفسر كل شيء هو الفكر الأيديولوجي وليس الفكر الأدبي.

إن الذي ينقص رواد الحداثة في عالمنا العربي هو قدرتهم على الاعتراف بأن هذه المذاهب الأدبية الغربية «كالبنيوية مثلا» ليست منهجا أدبيا خالصا، بل هي تحمل من الفكر الذي انبثقت عنه في البيئة الغربية والأيديولوجيا التي ارتبطت بها وتحاول التعبير عنها، هي تحمل من ذلك كله أضعاف ما تحمله من قدرة على تفسير الأعمال الأدبية ومحاولة فهم أسرارها، أو توضيح جوانب المتعة الفنية فيها. كما ينقص هؤلاء أيضا تلك الشجاعة على الاعتراف بجوانب الضعف التي تعتري هذه المذاهب، فهي وليدة الفكر البشري وليست وحيا إلهيا منزلا، ولكن بدلا من أن يوضح المتحمسون لهذه المذاهب ـ وهو يبدو في كثير من الأحيان، حماسا ناتجا عن الصدمة الحضارية، أو العقد النفسية أكثر من أي شيء آخر ـ بدلا من أن يوضحوا كل الجوانب المتعلقة بتلك السياقات الحضارية والاجتماعية التي نتجت عنها وتسببت في بروزها في حقبة معينة ثم في اختفائها أو تلاشيها في حقبة أخرى، بدلا من ذلك فإنهم أحاطوها بهالة من التقديس، وأقاموا حولها الحصون والمتاريس وكأن هذه النظريات الغربية هي من نتاج أنفسهم وإبداعات أفكارهم، وهو الأمر الذي يجعل الإنسان يشعر بكثير من الشفقة والعطف عليهم، فخيالاتهم جامحة، وأوهامهم متعددة، وعقولهم منغلقة، وهم أبعد ما يكونون عن الواقع الذي تعيشه أمتهم في تراثها وفكرها وأدبها.

* * *

الجذور البعيدة للفكر الحداثي

يحمد للزميل الكريم الدكتور محمد خضر عريف معالجته لقضية الحداثة في كتابه الموسوم «الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة» يحمد له تلك الموضوعية التي تناول بها هذا الموضوع الذي يجب أن يكون الحوار حوله هادئا والمناقشة المتصلة بقضاياه بعيدة عن التشنج وإن كان لابد من الإشارة إلى أن مشايعي هذه الموضة الفكرية التي تخفى وراءها كثيرا من الأيديولوجيات يحاولون أن يبرئوا مصطلح الحداثة Modernity مما يرتبط به أصلا من أزمات وتناقضات وهذا ما يشير إليه «هنري لوفيفر» بقوله: «إن الحداثة لا تواصل مسيرتها بدون أزمــات، إن التناقضات تعبث فيها من كل جانب وتعمل عملها الذي لو تحقق فسيحول الحياة». كما يؤكد نفسه على تلك الأهداف التي تسعى لتحقيقها وهو خلخلة المألوف مما لايستطيع معه مناصروها إقصاء هذا المعنى الذي يتجاوز بها كونها قضية تتصل بعملية التجديد الشكلي أو اللغوي إلى فضاءات أخرى أكثــر أهمية وأعمق تجذرا، يقول «لوفيفر»: «فالحداثة بقدر ما توجد في حالة تعارض مع ما هو قديم بقدر ما تختزن في عملياتها احتمالات الأزمة، فتحريك القديم يشكل خلخلة للموجود وللمألوف».

«منطق الحداثة وتحديث التقليد، محمد نور الدين أفاية، الملحق الثقافي لصحيفة الاتحاد المغربية ٢٩ يوليو ١٩٩٠م».

● وهي بقدر تعارضها وتبرمها مما هو قديم وبالتالي من كل ما يدعو إلى التقليد والاهتــداء بمبادىء التراث، وبالرغم من أنها تتضمن في عملياتها احتمالات الأزمة وأنها تعاند كل تعريف وكل إرادة لتحديدها وإعطائها تسمية معينة، فهي في الوقت نفسه تحيل إلى حضارة تعمل على إلغاء الآخر ونفي ثقافته، فهي بقدر ما تريد أن تفعل في الواقع وتغيره بقدر ما تنسج حولها أساطير لدرجة يتداخل في ظاهرها ما هو واقعي وما هو أسطوري.

● وهذا المفهوم الأخير الذي استنتجه ،منظّرون غربيوّن مدركون تمام الإدراك للسياقات الحضارية والفكرية التي انبثق عنها هذا المصطلح يفسر لنا مواقف تلك النخبة التي تحملت طواعية عبء نشر هذه الأيدلوجية الفكرية في العالم العـربي، فهم في الوقت الذي يدعـون فيه إلى تعدد الآراء فإننا نجد مفهوم التعددية لديهم لا يتجاوز الانكفاء على النفس والانغلاق على الذات بل والأخطر من ذلك محاربة الآخر بطرق شاذة وغريبة كثيرا ما يحاولون إلصاقها بهذا الآخر الذي يسعون للقضاء عليه، ولقد حدثني صديق حميم عرف بتمكنه من اللغة الشعـرية وقدرته الفائقة على التدليل على أن القصيدة العمودية لا يمكن أن يزاحمهـا ذلك الغثاء الذي تنضح به تلك التجارب الفجة في ما يسمى بعالم التجريب الشعري، حدثني أن أحد منظري الحداثة صارحه في جلسة صفاء أن التيار الحداثي عمل بكل الوسائل على مضايقته (أي هذا الشاعر العمودي المعروف في الساحة) سعيا منهم في القضاء على الأصوات الشعرية الأخرى التي لا تشاركهم الرأي وتفترق عنهم في التصور، وهذا أمر خطير يدلل على تلك النزعة القمعية التي تخفيها الحداثة تحت معطفها، ثم تدعى ـ أمام الرأي العام ـ أنها القيّم الأعظم والمؤتمن الأوحد على تلك المفاهيم الحضارية الجذابة من مثل حرية الكلمة، وأخلاقيات الحوار وأدبياته، وأنها لا تعمل على نفي الآخر بقدر ما تسعى إلى مناقشته ومعرفة رأيه ولكن الادعاء شيء والتطبيق العملي شيء آخر، وهو مأزق آخر تعاني منه الحداثة وكثيرا ما أفقدها مصداقيتها حتى عند بعض أولئك الذين يميلون إلى بعض طروحاتها الفكرية والأدبية.

● وإذا كان الأستاذ الكبير أحمد الشيباني قد حدد في المقدمة التي كتبها لكتاب الدكتور عريف، قد حدد منطلقات الحداثة في الفكر العربي وجعل في مقدمتها «الإلحاد» مستشهداً بآراء الكاهن الأكبر للحداثيين «أدونيس» وذلك من خلال آرائـه المـطروحة في كتابه «الثابت والمتحول» والذي استقاها من أستـاذه الكـاهن اليسوعي «بولس نويا» (انظر المقدمة ص: د ـ ن) فإنه من المفارقات العجيبة أن الحداثة الأوروبية بمفهومها الحالي والتي لابد من فهمها وفق معطيات الفكر الأوروبي والسياقات الحضارية والاجتماعية التي نما وبرز فيها هذا الفكر ـ هذه الحداثة الأوروبية التي يحدد النقاد الغربيون بداياتها

في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر الميلادي «١٨٨٠م» كما يشير إلى ذلك (مالكوكم برادبيري)، و(جيمس مكفارلين) في الفصل الذي عقداه عن اسم الحداثة وطبيعتها في الكتاب المعروف :

Modernism, 1890-1930, "Pen Gvin Books, 1976, P.40-1930"

وهي الحقبة التي شهدت ولادة وبزوغ أكبر مُنَظِّر حداثي أوروبي وهو «توماس ستيرنز إليوت» "ELIOT" ١٩٦٥ ـ ١٨٨٠م. انظر عن سيرة هذا المبدع الأمريكي الأصل، الإنجليزي الثقافة والمنزع، كتاب :

"T.S. Eliot: Peter Ack Royd, London, 1984"

هذا المنظّر الذي يلهج بذكره بعض أنصار الحداثة في عالمنا العربي وهم يجهلون أبسط الحقائق عن حياته وأفكاره، كان هذا المنظر «إليوت» من أوسع المثقفين إطلاعا على التراث الذي سبقه وأعمقهم فقها به، وكان أيضا ـ ولنفس السبب ـ من أشدهم حبا له وتقديرا لمزاياه، وأكثرهم حماسة في الدفاع عنه والانتصار له، وأسخاهم جهدا في دراسته واستكشاف مجهوله، وترويج كاسده وتحبيب القراء الحديثيين فيه «انظر: قضية الشعر الجديد، د. محمد النويهي، ط٢، ١٩٧١م، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥».

● ولكن الذي حاول الحداثيون العرب أن يتغافلوا عنه هو تلك العقيدة المسيحية «الكاثوليكية» التي كان يؤمن بها أشد الإيمان كما أن شعره كان متبلورا حول الفرد المنقذ، هو يدعو إلى الربط بين الأدب من ناحية والأخلاق من ناحية أخرى، «وهو لا يكتفي بهذا الربط بل يصر على ربط الأدب بإلاهيات ثابتة عامة شاملة وبأخلاق ثابتة عامة شاملة، وهي إلاهيات وأخلاقيات لا وجود لها إلا في الموقف الكاثوليكي من الدين، وهو يعترف بأن الحكم على الأعمال الأدبية اقترن دائما في الماضي ولا يزال يقترن بالفكرة الأخلاقية» انظر: «دراسات أدبية، د. خليل كمال الدين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٥م.. ص٢٦٦».

● وإذا كان منظرو الحداثة في الفكر العربي طالبوا وفي مقدمتهم أدونيس بإسقاط التراث كما ذكر أستاذنا الشيباني في مقدمته الضافية لكتاب الدكتور عريف «وقد كان أدونيس أوضح الحداثيين (إن لم أقل أوقح الحداثيين) في

مطالبته بإسقاط تراثنا من إسلامي وعربي. مستجيبا في ذلك لنصيحة أستاذه الكاهن اليسوعي «بولس نويا» الذي يخاطب أدونيس في الصفحة ١٦ من كتاب أدونيس «الثـابت والمتحول» ويقول: «لقد ذكرت في الأطروحة أن التراث هو بمثابة الأب ونحن نعلم أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حريته ويحقق شخصيته إلا إذا قتــل الأب، فعلى العـــربي أن يميت تراث المــاضي في صورة الأب ليستعيده في صورة الابن»، إذا كانت هذه هي رؤية أدونيس للتراث الإسلامي والعربي ورؤية تلامذة له أسلموا قيادهم لترّهاته وأباطيله وهي رؤية حاقدة تعبر عن فكـر شعوبي بغيض، إلا أن رؤية منظرّ الحداثة الغربي (ت.س. إليوت) لتراثه الفكري والأدبي تغاير تلك الرؤية التي يجاهر بها أدونيس متحديا كل مشاعر وأحاسيس أولئك الذين ينتمون لأمتنا الرائدة انتماء حقيقياً لا مراوغة فيه، (فإليوت) يكشف عمله الإبداعي المشهور «الأرض اليباب» "The Waste Land" عن تقديره لتراثه وتأثره به، ولعل العمل الشعري «لإزراباوند» Ezra Pound المعـروف باسم "Hugh Selwyn Mouber Ley/ 1919-20" كان له أثره الواضح في قصيدة إليوت التي يعتبرها الحداثيون العرب دستورهم الوحيد الذي لا يحيدون عنه، ولكن المعرفة الناقصة والقراءة المبتورة لا يمكن أن ينتج عنها عمل أدبي ناضج في ملامحه ومتميز في شخصيته.

«عن تأثير أعمال إزراباوند في إليوت، انظر: The Waste Land: Stephen Coote, and Bryan Loughrey, Penguin Books, 1985, P.P. 89-92".

● لم يكن إزرابــاونـد الوحيد من أدباء الغرب الذين كان «إليوت» ينظر إلى أعمالهم تلك النظرة التي تجسد احترامه لتراثه واعتزازه به، فلقد كان دانتي "DANTE" دائم الحضور في أعمال إليوت بل إنه كما يقرر الدكتور لويس عوض «لا سبيـل إلى فهم إليـوت إلا بدراســة ملحمة دانتي المشهورة.. الكوميديا الإلهيـة»، كذلك يستخـدم إليوت ما تعلمه من السير (جيمس فريزر) صاحب الغصن الذهبي، من مثولوجيا مقارنة بمهارة فائقة.

ولقد تجد في قصيدة واحدة من «الأرض اليباب، إشارات وتضمينات من سبنسر وشكسبير، وادي، وجولد سميث، وفرلين وأوفيد وسافو».

انظر: «في الأدب الإنجليزي الحديث، د: لويس عوض، ط٢، ١٩٨٧م ص٢٩٢».

● ولقد حاول لويس عوض أن يغمز من شأن إليوت لتمسكه بتراثه الديني وارتباطه به ارتباطا شديدا، ولم يكن لويس الوحيد من الشيوعيين والليبراليين العرب الذين أظهروا امتعاضهم من هذا الارتباط، فعداؤهم للدين حقيقة تنطق بها كل أعمالهم وإبداعاتهم، وإذا كان إليوت متشبثا بتراثه الروحي ورموزه الدينية إلى هذا المدى، فإن ذلك يدل على أن فهمهم لحداثة الغرب يعوزه العمق وتنقصه الموضوعية، وإن تخليهم عن منطلقاتهم الدينية تحت ستار ـ الحداثة ـ لا يجعل منهم روادا في تاريخ أمتهم، أو علامات مضيئة على طريق تراثها الفكري كما هو الحال مع الأدباء الغربيين الذين أدركوا أن الثمن سوف يكون فادحا لو فكروا في التخلي عن شيء من تراثهم المسيحي الذي قدموه على جميع المنطلقات الأخرى، فيما يجاهر البعض من المحسوبين على الثقافة العربية بأن تضمين المفاهيم الدينية في العمل الأدبي يخرجه من دائرة الإبداع إلى عمل أشبه ما يكون بالوعظ والإرشاد.

● ولو أردنا تقصي تلك المفارقات العجيبة التي وقع فيها الفكر الحداثي من جراء جهله بحداثة الغرب وما يرتبط بها من منطلقات دينية وفكرية تجعلها قضية طبيعية في ظل الظروف والسياقات الحضارية والاجتماعية التي عملت على بروزها في حقبة القرن التاسع عشر الميلادي ـ لو أردنا ذلك التقصي لضاق بنا المقام، وما دمنا محكومين بالمساحة المحددة على صفحات هذا الملحق الأغر فسوف نعود ـ إن شاء الله ـ لمناقشة القضية وسوف يكون رائدنا في ذلك كله البحث عن حقائق الأشياء بعيدا عن كل تعسف يؤدي إلى تشويه الحقيقة العلمية التي يسعى الجميع للوصول إليها.

* * *

نقاد إنجليز وكتاب عرب

● نالت الكاتبة الجزائرية الأصل، الفرنسية الثقافة واللغة «فاطمة جالير» جائزة «أرليتي» للمسرح الوطني بباريس، وكان مما لفت القائمين على منح هذه الجائزة هو أنّ الموضوعات التي تدور عليها قصص هذه الكاتبة هي تقاليد منطقة المغرب العربي بكل قيودها ومحرّماتها، وهو موضوع يكتسب أهمية خاصة من واقع الرؤية الغربية للشعوب الأخرى، وعلى هذه الرؤية نفسها بنى «جيمس فريزر» كتابه المعروف «الغصن الذهبي» The Golden Bough (١٨٩٠ ـ ١٩١٥م) والذي يقوم على التفسير البنيوي لمحظورات الأكل، أو العلاقات الزوجية، أو العقائد الدينية، الموجودة في المجتمعات المختلفة، ويستثنى من هذا: المجتمعات الغربية.

ولقد طرح الناقد الإنجليزي «جورج واطسون» سؤالا يهدف إلى توضيح التناقض الذي يبرزه تطبيق هذه الرؤية النقدية، والتفسير المذهبي لتقاليد الأمم الأخرى، وإعطائها تفسيرات معينة هي ـ في كثير من الأحيان ـ أبعد ما تكون عن المنهجية، والأسس العلمية المتجردة.

لقد قال «واطسون»: إن التفسير البنيوي لعادات وتقاليد الشعوب الأخرى هو «بديل راق لمبدأ تفوّق الرجل الأبيض في القرن العشرين، ولكي ندرك ذلك ما علينا إلا أن نتصور مقدار دهشة (فريزر) ـ وكان أستاذا بجامعة (كيمبردج) ـ لو اقترح عليه أحد أن يطبق أسلوبه في التحليل على طريقة الحياة (الأكاديمية) في (كيمبردج)، ومقدار دهشة (ليفي شتراوس) الأديب الباريسي لو اقترح عليه أحد أن يحلل عالم الأدباء المحترفين في باريس، متبعا ـ في ذلك ـ نفس منهجه.

حقا إن مثل هذا الاقتراح له إمكانياته «الكوميدية». ولكن ليس من المرجح أن يتتبع أحد هذه الإمكانيات خارج ميدان الصحافة الفكاهية، فالطوطميات

والمحرّمات مثلها في ذلك مثل الخرافات التي هي من الأشياء التي لا توجد إلا عند الآخرين، فالبدائيون يفعلون هذا، و «البراجوازيون» يفعلون ذلك، أما البنيوي فمن المقصود أن يشعر بأنه أسمى من كل ما يفعله هؤلاء». "Modern, Literary Thought/ 1978".

● سوف يتهمنا البعض بأننا متحاملون على الإنتاج الذي يكتبه بعض المثقفين العرب، الذين تلوك ألسنتهم بلغات أخرى، وهو إنتاج يدور - في معظمه - على تصوير التقاليد الاجتماعية، إن لم يكن على ازدرائها، ومحاولة تشويهها، في كثير من الأحيان، وعن بواعث الاهتمام بهذا الإنتاج إعلامياً، ومكافآته ماليا، نعم سوف يتهمنا البعض بالنظر إلى الإبداع من وجهة نظر أخلاقية، وهم لا يعلمون - أيضا - أن مبدأ احترام الأخلاق، وعدم خدش الحياء، أو انتهاك الرموز الدينية، هو مبدأ يحظى بكثير من الرعاية عند المؤسسات الثقافية والإعلامية في بلاد الغرب.

لكن لا أظنهم يتهمون ناقدا غربيا كبيرا مثل «واطسن» بأنه كان ممالئا لتقاليد الأمم وأعرافها أو أنه كان ينطلق من رؤية منغلقة ومتعصبة تجاه المذاهب الأدبية الغربية وأساليبها في تحليل الأعمال الأدبية، إلا أن التفسير الأقرب إلى الصواب هو أن كثيرا من كبار النقاد الغربيين لا ينظرون إلى المذاهب الأدبية الخارجة من بيئاتهم، والممثلة لبعض الاتجاهات الفكرية لديهم، لا ينظرون إليها بذلك التقديس، أو تلك النظرة السحرية التي ينظر - للأسف الشديد - من خلالها بعض المثقفين العرب الذين يبهرهم كل جديد من الغرب، ويضايقهم كل أصيل في تراثهم ولغتهم!

● بقيت مسألة هامة، في هذا السياق، وهي أن من ضمن ما تناولته الكاتبة «فاطمة جالير» في قصصها التي جذبت انتباه بعض المؤسسات الثقافية، في البلاد الغربية، هي مسرحيتها المعروفة باسم «آه لقد جئت» والتي يدور موضوعها - من وجهة نظر الكاتبة - حول التطرف الديني.

وإذا كنا - كمسلمين - نرفض أساليب التعصب، والتطرف المنافية لروح الإسلام واعتداله، إلا أن الأمر يبقى من وجهة نظر بعض المؤسسات الغربية مختلفا، فالإسلام - عند هذا البعض - هو تطرف كله. ولا اعتدال فيه. ولا نريد

أن نفصّل القول في دور الإسلام في نشر التسامح والعدل، وتطبيقه على جميع الأمم، التي دخلت حظيـرته، ولكن يكفينا الإشارة إلى أن المسلمين يسمّون أبنـاءهم باسم نبي الله «عيسى» ووالدته العذراء «مريم» عليهما السلام، ولا يرضون أن يتعرض أحد لمكانتهما بسوء، ويدخل ضمن هذا المعتقد الإسلامي كافـة أنبيـاء الله، ورسله، وعبـاده الصـالحين، ولكننا هل نجد نفس القدسية والرعاية لنبي الله وخاتم رسله محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند غير المسلمين من أتبـاع الديـانات الأخرى ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال كفيلة بتوضيح كثير من مفاهيم الاعتدال والتطرف، ودور الإسلام في التأكيد على الأول، وصونه ورعايته.

* * *

حقائق عن «الغونكور»

وقضيـــة الاتصـــال الثقـافـــي

● كما تحدث بعض المذاهب الأدبية الغربية، والمناهج المبنية عليها، كثيرا من الانبهار المصحوب بتوتر وحماس شديدين لدى فئة معينة من أدباء ومفكّري عالمنا العربي، والذي يردّه بعضهم إلى عوامل حضارية معيَّنة: فإن الأمر نفسه ينطبق ـ بصورة واضحة ـ على بعض تلك الجوائز، التي تمنحها بعض المؤسسات الغربية لبعض الأدباء غير الأوروبيين، والذين ينحدرون من دول، كأمريكا اللاتينية، أو آسيوية أو أفريقية.

وربما كان لبعض الأدباء، الذين ينتسبون بأسمائهم فقط إلى العالم العربي حظ ضئيل من هذه الجوائز، ومع ذلك فإن بعضهم يبالغ في تصوير مكانة هؤلاء الكتّاب، الذين رشحوا لجائزة من هذه الجوائز ويتجاوز الأمر الكتَّاب أنفسهم إلى الجائزة الممنوحة، فيبالغ في تصوير أهميتها، ويتطرق في الدفاع إلىٰ موضوعية بواعثها، ونزاهة أهدافها، بينما نجد ـ في حقيقة الأمر ـ أن بعضا من هذه الجوائز وفي بيئتها الأصلية، هو محور لعدد من المناقشات العلمية، التي تبحث في حقيقة توجه هذه الجوائز، وعدم مصداقية القائمين على منحها، وذلك لخضوعهم لعوامل مادية وعاطفية تؤثر في القرارات، التي يتخذونها بشأن منح هذه الجائزة، ولا تكف الصحف، والملاحق الأدبية الغربية، في كل مناسبة تمنح فيها هذه الجوائز عن فتح هذا الملف، تنويرا للقاريء الأوروبي، وتنبيها له من مغبّة الاعتماد على هذا الاختيار الأدبي، الذي تنقصه الموضوعية، ولا تتوفر فيه عوامل الصدق والإخلاص.

● لقد كان موضوع جائزة «الغونكور» وهي أبرز الجوائز الأدبية في فرنسا، مجالا للبحث والمناقشة في هذا العام في مناسبة مَنْحِهَا لبائع الصحف «جان رود» Jean Rouaud على روايته «في سبيل الوطن»، وهي رواية تروي قصة عائلة

تعيش آثار الحرب العالمية، وتتمحور حول صورة الأب الذي يمثل موته النقطة المركزية فيها(١).

كانت الملاحق الأدبية في صحيفتي «لوفيغارو» و «اللوموند» هي التي فتحت نيران النقد اللاذع على ما أسمته بقبيلة «الغونكور» ويتركز النقد الموجَّه إلى هذه الجائزة، وجوائز فرنسية أخرى، مثل «رينودو» و «ميدسيس» و «فيمينا» و «أنتيراليا» في أن دور نشر معيّنة، وهي «غاليمار» و «غراسيه» و «سوى» هي التي تحظى بنشر الروايات الفائزة، وذلك لأن هناك ارتباطا قويا بين الأعضاء القائمين على منح الجائزة وبين دور النشر التي أتينا على ذكرها، فبعض هؤلاء الأعضاء ينشر إنتاجه الأدبي فيها، وبعضهم يعمل مستشارا في أقسامها الأدبية المتخصصة، بينما يحتل قسم منهم موقعا إداريا فيها.

وهذا ما يجعل النقد الموجه إلى المقاييس التي تمنح بها هذه الجوائز يحظى بكثير من القوة والتأثير، كما يفتح أبوابا للتساؤل لدى القارىء المعني بهذه الجوائز، **أهمها** :

أنّ عامل الاستهلاك التجاري الذي يعود بالربح الوفير على هذه الدور يتدخل كثيرا في منح جائزة، مثل جائزة «الغونكور»، والتي ذكر أحد الأعضاء السابقين في لجنتها التحكيمية، وهو «لوسيان ديكاف» تبريره للاستقالة من اللجنة، **بقوله** :

«لن أعود أبدا إلى أكاديمية، هي بمثابة سوق قائم على الصفقات».

كما نشر «جوليان غراك» كتابا في أوائل الخمسينات، بعنوان «الأدب في المعدة» ويشير فيه إلى أن أعضاء لجنة «الغونكور» يقررون الجائزة، وهم يتناولون الطعام.

ولم يكتف «غراك» بما نشره من تحفظات على الجائزة، ولكنه ذهب إلى حد رفض الجائزة، عندما منحت له على كتابه «ضفاف الساحل»(٢).

---

(١) انظر: مقالة «وائل غزال» «غونكور أهم الجوائز الأدبية الفرنسية هدفها الربح»، «الحياة، ٤ جمادى الأولى ١٤١١هـ، العدد ١٥٥».

(٢) نفس المرجع السابق.

ولعل العامل التجاري نفسه كان وراء استقالة عضو آخر، في لجنتها : سنة ١٩٦٨م، وهـو «أراغـون» وانتقاد الكاتب الفرنسي «جان أدرن ـ اليه» لها، والمتمثل في قوله :

«غونكور هي عملية بحث تجارية».

● ولعل هذا النقد العلمي الدائر حول جائزة «الغونكور» في الصحافة الفرنسية المتخصصة، وهو نقد يهدف إلى تجريد الكتابة الأدبية، عندما تكون موضوعا لجـائـزة، من كل العـوامل الذاتية، والأهواء الشخصية، يدفعنا إلى مناقشة **قضيتين هامّتين، وهما:**

إلى أي مدى يستطيع نقاد الأدب، في بلادنا، التعامل مع موضوع الانفتاح على الثقافة الغربية، ومنها الجانب الأدبي، بشيء من الاعتدال، فلا نفرط ذلك الإفراط، عند التعامل مع التيارات الأدبية العالمية، وما يتصل بها من إبداع يدور في فلكهـا، ذلك التعـامل الذي يستبعد فكرة «المفتاح السحري» الذي يعتقد بعضنا أنه يمكن تحقيقه، من خلال تطبيق هذا المنهج الفكري أو ذاك على كل ما نحوز من تراث، ونملك من فكر، فما ناسب ذلك المنهج الغربي كان مقبولا لدينا، وما خالفه كان مرفوضا ومنبوذا، على أنه في الجانب المقابل يجب ألا يشكـل موضــوع قراءة إنتــاج غربي، والاستمتـاع بصــور الإبداع فيه، والاستفادة من المعطيات الحضارية عند الأمم الأخرى من خلاله ـ ألا يشكل ذلك حســاسيــة لدينــا، فنـوصد الأبواب، ونخشى من هبوب الرياح، فالثقافة الإسلامية والعربية ثقافة راسخة الجذور، ودائمة العطاء، ولا يمكن لثقافة أخرى أن تقتلعها من نفوس أبنائها، أو تقوّض أركانها، التي امتدت امتداد ذلك التاريخ العظيم، النابع من الرسالة الإنسانية، المتمثلة في إعجاز كلام الله، وبلاغة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

أما القضية الثانية، فإلى أي حد استطاعت الملاحق الأدبية، في عالمنا العربي، الخروج من رتابتها، وإيقاعها الواحد، إلى عملية البحث، والتقصي في القضايا، التي تهم القارىء، وتستأثر باهتمامه، فكثير مثلا أولئك الذين سمعوا عن جائزة «الغونكور» من خلال فوز عدد محدود من الكتاب العرب بها، كالطاهر

ابن جلّون، سنة ١٩٨٧م[1]. وقليل أولئك الذين أتيحت لهم فرصة التعرف على تاريخ هذه الجائزة، وأهدافها، وما يوجَّه إليها من نقد علمي، ويدخل في ذلك ـ بالطبع ـ جوائز أخرى نسمع بأسمائها، ونجهل حقائقها.

● إنها قضية الصحافة المتخصصة في الفكر والأدب، وقضية القائمين على هذه الصحافة، والذين يميلون إلى موقف فكري معين، ويجعلون منه خندقا يتمترسون من خلاله في مواجهة كل موقف فكري وأدبي آخر يخالفهم في الرأي، أو يناقضهم في التصور، ويتعنتون كل التعنت في الانتصار لمن يحبون من الأسماء، بعيدا عن صلاحية وجدوى ما تكتبه هذه الأسماء، أو تضيفه، إلى رصيد ثقافة الأمة وفعالياتها.

ثم هي قضية أولئك النفر، الذين يملكون من المعرفة ووسائل البحث ما يؤهلهم لتبيين الحقائق المتصلة بحضارة الآخر، وثقافته، ولغاته، ولكنهم يؤثرون الصمت، ويميلون إلى التغاضي. وعندئذ يتصدى للقول في هذا الجانب من تنقصه أدوات المعرفة، وتغيب عنه حقائق الاتصال الحضاري وضوابطه ومنطلقاته.

على أنه لو اقتصر هذا النفر على قول ما يعرفه لم يضره الإحجام عن اقتحام ما يجهله، أو ما لا تعينه عليه مواهبه وأدواته، ولكنه حب الظهور من غير تمكن، وتعجل للشهرة، بدون دواعيها، واستباق للزمن من غير ضابط.

ولعل الضحية الوحيدة في هذه القضايا، التي قاد إليها البحث في قضية جائزة «الغونكور» هو القارىء الذي يأتمن القائمين على منابر الثقافة والأدب، ناظرا إليهم كرموز مضيئة تشير إلى الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان، والحقيقة في ثنايا الفكر، وبين سطور الإبداع، هي ما يرتقي بهذا الإنسان إلى عوالم الروح، تلك العوالم المشعة بالضياء، والمترعة بالصدق، والقريبة من المنابع الأولى للمعرفة.

---

(١) حول الكتّاب العرب الذين يكتبون إنتاجهم باللغات الأوروبية، انظر: دراسة كاتب المقال في ملحق «الأربعاء» الثقافي، بصحيفة المدينة «مثقفون عرب ولكن بدون هوية» الأربعاء، ٤ جمادى الأولى ١٤١١هـ.

نجيب محفوظ والالتزام الفكري

بالأمس القريب كنا نجهش بالبكاء. وترتفع أصواتنا بالنحيب حزنا على عدم تقدير المؤسسات الغربية لفكرنا وأدبنا، ومَرَدُّ ذلك إلى أننا جعلنا الغرب وجوائزه العلمية مقياسا للتقدم والرقي الفكري، وجهلا بتراثنا وقيمته وجدواه، وعندما فاز «نجيب محفـوظ» بجـائـزة نوبل للأدب، بدأنا ندق الطبول، وننشد الأهازيج، ونرقص فرحاً وسروراً، وكأن لسان حالنا يقول: لقد زالت عقدة النقص التي كنا نشكو منها، وحقيقة الأمر أن الهالة التي أحطنا بها هذه الجائزة والآمال التي كنا ومازلنا نعقدها عليها جزء من الغزو الفكري الذي يشلّ إرادة الأمة، ويشوه وجهها الحضاري ويغير في بنيتها الثقافية.

لقد كان القائمون على هذه الجائزة من الذكاء بمكان، فلقد حجبوها عنا ردحا طويلا من الزمن، ثم منحوها لواحد من الكتاب العرب الذين لا يشك في اتساع ثقافتهم وتنوع مواهبهم، وقدرتهم في السيطرة على الأداء اللغوي وتمكنهم من الأسلوب الأدبي إلا أن هذا كله لا يمنعنا من القول إن إنتاج «نجيب محفوظ» وخصـوصا في تجاربه الروائية التي يمكن إدراجها تحت ما يسمى بالمذهب الواقعي، يمثـل الجـانب المظلم من سلوك بعض الطبقات الاجتماعية فهو لا يتعامل مع هذه الطبقات إلا من الجانب السلبي منها، وخاصة الطبقة الوسطى التي أكثر تعامله معها، وأكثر تركيزه على نماذجها البشرية بدءاً من «على طه»، و «أحمد بدير»، و «مأمون رضوان»، في القاهرة الجديدة، وانتهاء «بحسين»، و «حسنين كامل علي» في بداية ونهاية، ومرورا «بأحمد عاكف» وأخيه «رشدي» في خان الخليلي، و «كامل رؤبة لاظ» في السراب، و «عباس الحلو» في زقاق المدق.

ولقـد أظهـر محفـوظ جوانب القـاهـرة السلبيـة في بنيتهـا الاجتمـاعية، وشخصياتها النمطية وبعض صور واقعها، ولنا أن نضيف أن قاهرة عمرو بن

العـاص، والعز بن عبد السلام، وسعد زغلول، والرافعي، وعبد الحليم محمود، وحسنين مخلوف، ومحمد متولي الشعراوي، وزينب الغزالي، وبنت الشاطىء لتوحي بواقعية أشمل رؤية وأطهر سلوكا، وأوضح طريقا، ولكن «محفوظ» الذي عبّر رمزيا في «أولاد حارتنا، عن إيمانه بالاشتراكية كمنهج بديل في الحياة هو الذي سخر موهبته الأدبية، وأداته الفنية لتصوير النفس الإنسانية في بعض مراحل هبوطها أو انحدارها، وهي واقعية تحتذي النموذج الغربي والمتمثل عند الروائيين الإنجليز والفرنسيين من أمثال «جالز ويرثي»، و «أرنولد بينت»، و«جـورج موور»، و «الإخـوان دي كونكـور»، و «بلزاك»، و «أميـل زولا»، و «موبسان»، و «فلوبير».

أمـا الواقعيـة الحقيقية التي تنظر إلى الإنسان في صفاء روحه. وطهارة سلوكه، ومثالية أخلاقه، ونظافة تعامله، فهي الواقعية التي نهل من معينها أدباء ومفكرون من أمثال «علي أحمد باكثير»، و «محمد قطب»، و «عماد الدين خليل»، و «نجيب الكيلاني»، و «عبد الحميد جودة السحار».

إن هؤلاء الكتاب الذين أناروا الطريق بإنتاجهم الفكري والأدبي القيّم، ولم يخرجوا عن الطريق السوي الذي ارتضاه الله لعباده، لهم أكبر من جوائز الغرب وأعظم من تقدير هيئة حكامه ومنظريه.

* * *

رواية قصر الأحلام

● ربما يكون من الميسور على لجنة الترشيحات الخاصة بجائزة «نوبل»، في المستقبل، اختيار واحد من كتاب ثلاثة، ينتمون إلى بلاد إسلامية، وهم: سلمان رشدي، و: ف.سي. نايبول من الهند، وإسماعيل قدري من ألبانيا وسوف يكون المبـرر غير المعلن، وراء اختيار هؤلاء لهذه الجائزة، هو: هجومهم البغيض، وتحاملهم المنكر على الإسلام.

وقبـل أن نلج إلى منـاقشة خبر توبة «سلمان رشدي» وعودته إلى حظيرة الإســلام، كما حملته إلينا بعض الصحف الغربية والعربية، على حد سواء، يحسن أن نشير إلى أن الباعث الحقيقي خلف هروب القاص الألباني «قدري» من ألبـانيا إلى فرنسا، هو: استعجاله لقبض الثمن من بعض أجهزة الإعلام الغربية، لما أبداه من وقاحة متناهية في روايته الأخيرة «قصر الأحلام» والتي وظف فيها أحداث التاريخ الإسلامي، في ألبانيا، للهجوم على شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتي تمثلها، في الرواية، شخصية شيخ الإسلام، وما تقـوم به من أدوار، ولن يكـون من الصعب استكنـاه ذلك، أو اكتشافه، فكل تطورات الحدث وما يرتبط به من رموز وأساطير تشير إلى مغزى الكاتب، وما يرمي إليه من أهداف في روايته التي نشرت، قبل شهور قليلة، في فرنسا.

● إلا أن «رشدي» الذي لم يكن، في يوم من الأيام، روائياً من الدرجة الأولى، قد حصد ـ من قبل ـ ثمن جنوحه وشططه، فلقد فاز ـ في الثمانينات الميلادية ـ بجـائزة «بوكرك» الإنجليزية، ومع أن حدث توبته الذي جاء بعد سنتين من عزلتـه وانقطاعه عن المجتمع، بعد قضية ذاتية، مع ما نلاحظه من اختلاف لتفسير هذه التوبة، من قبل المؤسسات الإسلامية، داخل بريطانيا وخارجها، إلا أنـه يدهشـك ذلك الكم الكبير من المقالات التي نشرتها بعض الصحف

الغربية حول موضوع توبة هذا الكاتب، بعد اجتماعه مع ستة من علماء المسلمين.

ولا تخرج هذه المقالات ـ في معظمها ـ عن كونها توبيخا لرشدي على إعلانه التوبة، وتشكيكا في مفاهيم العدل والتسامح والرحمة في الدين الإسلامي.

ولا تخفى هذه المقالات ـ أيضا ـ تحريضها للمؤسسات الغربية ضد الكتاب الذين ينتمون للبلدان الأخرى، خشية أن يستيقظ ضمير هؤلاء الكتاب يوما، فيبوحون بما يعرفونه عما يحاك من خلف ظهور المسلمين، وعلى يد أبنائهم ـ للأسف الشديد ـ في كثير من الأحيان.

* * *

الدكتور محمد برادة والتهافت الأيديولوجي

● يدور بعض الذين يتصدون للكتابة النقدية، في العالم العربي، في حلقة مفرغة، من حيث تطلعهم إلى إيجاد منهج ملائم، ينبثق من التراث العربي النقدي، وينفتح ـ في الوقت نفسه ـ على المناهج الغربية الحديثة، للإفادة منها، في ميدان البحث والتحليل الأدبيين، ولكن سرعان ما يقع هؤلاء الكتّاب في أسر «الأيدلوجية» الفكرية، والتي يحاولون إخفاءها، أو التنصل منها، عند مواجهتهم بالأدلة على تهافت هذه المنطلقات «الأيدلوجية» التي تشكل رؤيتهم لهذه الحياة، ولا يقتصر مداها على ميادين الفكر والأدب.

● في مقدمة الكتّاب العرب، الذي يبصرون الكون بأعين غربية، ويصرّون على تكبيل عقولهم، بنظريات الفكر «الماركسي» الكاتب المغربي الدكتور «محمد برّادة» الذي تغير العالم من حوله تغيرا جذريا، وذلك عندما تخلصت شعوب أوروبا الشرقية من جميع القيود الشيوعية، سواء كان ذلك في ميادين الاقتصاد أو الفكر والثقافة، بل إنها عبَّرت عن رفضها لجميع التصورات، التي حاول منظِّرو الحركة «الماركسية»، على مدى قرون عديدة، فرضها بالقوة والإكراه.

وكان هذا التعبير يبدو واضحا في تحطيم تماثيل «لينين» و «ستالين» من الساحات والميادين العامة، والهروع جماعات إلى أماكن العبادة، وهو شعور فطري، وإدراك سليم لم يكلف منظرو التوجهات «الماركسية»، في عالمنا العربي، أنفسهم عناء التوقف عنده، ودراسة أبعاده، لاستخلاص الدرس، الذي يجب أن يعوه جيدا، وهو أن العالم الغربي بمعسكريه الغربي والشرقي لم ينفصل ـ يوما ـ عن دينه، أو يحتقر طقوسه وشعائره، بل عاد، وهو أكثر إيماناً بمنطلقاته وثوابته، في الوقت الذي مازال يحلم فيه البعض من رموز الحركة الثقافية، في عالمنا، من أمثال «محمود درويش»، و «عبدالوهاب البياتي»، و«عبدالعزيز المقالح»، و «غالي شكري»، و «كمال أبو ديب» يحلمون بعودة

أمجاد الساحة الحمراء، فهناك ـ في اعتقادهم المنحرف ـ يُقَدَّم الولاء، ويحسن التبتل، وتذرف الدموع.

والدليل على أن هذه النخبة لم يدركها التغير الطبيعي، الذي أدرك الآخرين، وأصاب الأمم التي كانت مصدرا لهذه المعتقدات والآراء، هو ما تكتبه أو تبدعه من إنتاج فكري وأدبي.

وقبل مدة ليست بالقصيرة وقعت بين يدي «أطروحة الدكتور» محمد برادة التي كتبها ـ في الأصل ـ باللغة الفرنسية، وقدمها للحصول على «دكتوراه السلك الثالث» من جامعة باريس، تحت إشراف الأستاذ أندريه ميكيل، وكانت بحوثها تدور حول الناقد المعروف «محمد مندور».

وعندما قرأت مقدمة «الأطروحة» والتي تقع في حوالي مائتي صفحة، والصادرة عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، استوقفتني عبارات المؤلف الرافضة لاتخاذ المذاهب الأدبية الغربية منهجا لدراسة فكرنا وأدبنا، لما لهما من خصوصية وتفرد.

يقول البرَّادة، في هذا السياق: «إننا غير مقتنعين بالمنهج الذي يتخذ المذاهب الأدبية المقتبسة عن أوروبا، إطارا مميزا للممارسات النقدية العربية، لأن ظروف النشأة والمكونات ومسار التطور والتبلور متغايرة بالحتم، ومن ثم فإن كل تعميم لمثل هذه المقاييس لا ينفذ إلى خصوصية الاتجاهات عندنا «مقدمة الأطروحة: ص ١٠».

إلا أن هذا التوقف لم يطل، وإذا بتلك السحابة التي خلتها سوف تمطر تنقشع عن رعود وصواعق مهلكة، وتنذر بجدب مخيف، حيث رسم الرجل ـ فجأة ـ منهجه، وحدد معالم هذا المنهج بقوله: «لقد آثرنا ـ فيما يخصنا ـ استيحاء المناهج الصادرة عن البنيوية التكوينية، كما بلور كل من جورج لوكاش، ولوسيان كولدمان (قولدمان) وبيير بورديو، وفي رأينا أن ميزة هذا المنهج تتمثل، فضلا عن مرونته المفهومية، في الأهمية القصوى التي يعطيها للتاريخ بمفهومه الواسع والمعقّد، ولما كان معظم الدراسات المتصلة بالمجتمع العربي وثقافته مطبوعا بإضفاء القداسة على حساب التحليل الموضوعي، فإن الصدور عن منهج تاريخي جدلي مرتبط بالقوى الاجتماعية، وصراعاتها، وانعكاساتها

الأدبية والفنية، من شأنه أن يسهم في تخليص دراساتنا من هالات التقديس والتبرير القائم على أحكام مسبقة (المقدمة: ص١١).

لقد عاد «برّادة» للحلقة المفرغة التي تحدثنا عنها في بداية هذه الكلمة، ونقض ما ذهب إليه ـ في بداية المقدمة ـ من رفض وعدم اقتناع بالمذاهب الأدبية الغربية، كإطار للدراسات النقدية العربية، واستبدل مذهبا بمذهب آخر، وأراد أن يتخلص من اتباع وتقليد، فإذا به يقع في إسار اتباع وتقليد من نوع آخر، إلا أنه ـ مع تحديده للمنهج الذي آثره بالاتباع، وهو البنيوية التكوينية ـ لم يذكر لقارئه أن هذا المنهج هو وليد التصور «الماركسي» بل هو ألصق المناهج بهذا التصور وأقربها منه، وإن كانت كلمات «برّادة» الواردة عند تحديده لمعالم هذا المنهج البنيوي، «الماركسي» تشى بتوجهات صاحبه، وتوضح مراميه، فالكلمات مستمدة من قاموس خاص، لم يعد يخفى على القارىء العادي، فضلا عن القارىء المثقف، وهل يحتاج الإنسان إلى تتبع المصطلحات التالية التي حفلت بها عبارات الباحث: من مثل: تاريخ جدلي، القوى الاجتماعية، الصراعات، هالات التقديس، ليعرف مصدرها الفكري، ومنطلقها العقائدي، قبل ولوجها ساحة النقد، وتخفيها تحت قناع أدبي خالص.

● لم يكن تناقض برادة ـ في المقدمة ـ هو كل ما استوقفني في الكتاب، ولم يكن انحيازه تجاه البنيوية التكوينية «الماركسية» بالجديد عليه، فالرجل سبق له أن بشر بهذا المذهب، وترجم بعض المصادر الخاصة به، وليته توقف عند هذا الأمر، ولم يتورط في أمر أشد نكاية وأعظم خطرا: ألا وهو الانتقاص من شأن شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك عند انتقاده لبعض الكتاب:

الذين يختمون حياتهم ـ حسب تعبيره ـ بالكتابة عن حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليتبرأ الكاتب من مقولة شنيعة كهذه حاول إلصاقها بالكاتب الذي خصص دراسته عنه: وهو «محمد مندور» ولكنني عند العودة إلى نص «مندور» والمنقول عن كتابه في الميزان الجديد، والمثبت في مقدمة «برادة»: لم أجد أثراً لهذه العبارة المفتراة، وبالتالي فلا بد أنها تكون من وضع «برادة» نفسه: الذي يقول: «كان مندور مثله مثل الرواد في بداياتهم متأجج الغضب، ساخطا على

نفاق النقاد، وعلى تقهقر الكتّاب الكبار الذين ينهون حياتهم بإصدار مؤلفات عن رسول الله» (المقدمة: ص٤).

إن الحديث عن شمائل المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتبر في نظر «برادة» تقهقرا، كما أن التأليف في سيرته يعد من سمات النفاق في نظر هذا الكاتب الذي ينتمي إلى البلد الذي أنبتت أرضه الطيبة علماء خُلدت أسماؤهم في التاريخ الإسلامي، بما كتبوه عن رسول الهدى، والتعريف بحقوقه: كالقاضي عياض بن موسى اليحصبي، والإمام عبد الرحمن الجزولي ـ رحمهما الله.

ولعل «برادة» رأى في صنيع بعض المفكرين والأدباء العرب: مثل: الدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ عباس العقاد، الذين كرسوا جهودهم الفكرية للدفاع عن الإسلام: كنظام ودستور حياة.. واحتفائهم بشخصية خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نجده عند «هيكل» في كتابه «في منزل الوحي»، وفي كتابه الآخر «حياة محمد» الذي ترجمه لأحد الكتاب الغربيين عن اللغة الفرنسية «والكتاب مع هذا عليه مآخذ عديدة».

وكما فعل «العقاد» في عبقرياته المشهورة رأى «برادة» في هذا الصنيع: انطلاقا من تصوره الفكري، خطوة كانت يجب أن تتم في الجانب الآخر، وهو التبشير بالمذاهب المادية، والإشادة بالرموز الفكرية لهذه المذاهب، فهذا ـ في نظر الكثيرين، من أمثال «برادة» ـ هو عين التقدم، وحقيقة التطور، الذي يرجونه لمجتمعاتهم.

إلا أن على «برّادة» وأمثاله الذين لن تنال كلماتهم الحاقدة من شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا، عليهم أن يعلموا أن هذه الشخصية لم تنتزع فقط إعجاب أولئك الذين يتردد على مسامعهم اسمه الكريم، خمس مرات في اليوم، وتتفتح بصائرهم، كلما توقفوا عند سيرته العظيمة، قارئين لها، ومتعظين بأحداثها ودروسها، بل انتزعت ـ أيضا ـ إعجاب كبار الكتاب الغربيين الذين ينظر «برادة» إلى عطائهم الفكري بإعجاب هو النفاق بعينه، وإكبار هو التقهقر الحقيقي، ونحن نورد له ـ هنا ـ فقط اسم برتراند رسل «من أكبر الفلاسفة الغربيين» فمع أن هذا الفيلسوف لم يرض عن دينه إلا أنه أشاد

بالإسلام ورسوله الكريم، وكذلك فعل الروائي الإيرلندي المعروف «برناردشو»، وقد قرأت ـ أخيرا ـ عرضا علميا في الملحق الأدبي لصحيفة «التايمز» البريطانية، لرحلة الكاتب الهندي «ممتاز مفتي» إلى مكة والمعروفة باسم «لبيك» فوجدت أن الكاتبة الغربية Barbara, Metcalf تنعي على بعض الكتاب الذين ينتسبون إلى الإسلام رغبتهم في التقليد الأعمى للكتاب الغربيين، ومناهجهم الفكرية، ثم تذكرهم بشيء هام ومفيد في سياق حديثها: وهو أن الكتاب الغربيين ـ وإن كانوا لا يؤمنون برسالة الإسلام ـ إلا أنهم يعتبرون «النبي» محمدا رجلا عظيما، وهذا إثبات لمقولتها، كما وردت في الملحق المذكور:

That it, Nathing, Else, Ehey, Respect, The prophet, Muhammad, as, ''Ag-reatman''.

(انظر T.L.S.June 1 - 7/ 1990 /P / 585) .

* * *

الباب الثاني

الشرق والغرب

حقيقة الديمقراطية

● استأثرت بالرأي العام البريطاني أخيرا قضيتان هامتان، ومع اختلاف الجهات المرتبطة بهاتين القضيتين من حيث البواعث والشخصيات، إلا أنهما تعكسان الرؤية الحقيقية للمجتمع الغربي تجاه الأعمال الإبداعية (الكتابية منها والمرئية) التي تتعرض بالنقد أو الكشف عن بعض الجوانب الخاصة لشخصيات تحظى بالحصانة القانونية لمنزلتها الاجتماعية، أو لما تقدمه للمؤسسات السياسية والثقافية من خدمات خاصة ومميزة لا تستجيب لأدائها أو القيام بها إلا فئة محددة من الناس.

● **القضية الأولى** : هي صدور أمر قضائي بمنع المجلة الفرنسية «باري ماتش» لنشرها في عددها الأخير مقتطفات من كتاب يذيع بعض أسرار العلاقات الخاصة في الأسرة البريطانية المالكة، مما اضطر موزعي المجلة لقص الصفحات من ثمانية آلاف نسخة توزع في بريطانيا ووضع على كل منها عبارة «لأسباب قانونية تم نزع بعض الصفحات».

● **أما القضية الثانية** : فهي قيام اللجنة البريطانية للرقابة على الأعمال السينمائية بمنع عرض فيلم باكستاني عنوانه «انترناشيونال غير يللا» تدور أحداثه حول قصة خيالية عن موت الكاتب الهندي الأصل البريطاني الجنسية «سلمان رشدي» مؤلف كتاب «آيات شيطانية»، وبررت اللجنة عملها هذا بأن الفيلم يخالف القوانين البريطانية التي تحرم التشهير العمد.

«وإن كان قد ووفق أخيرا وتحت ضغط الصحافة والرأي العام على عرض الفيلم في مقاطعات معينة وللمتفرجين فوق ١٨ سنة».

والقضيتان تحملان دليلا واضحا وتقدمان شاهدا حيا على عدم حيادية ونزاهة القوانين الغربية تجاه مثل هذه القضايا، فكم من الأفلام التي تعرضت بالتشهير لفئات أو بلدان معينة وقام بعرضها التليفزيون البريطاني، وأُشْهَرَ

المسؤولون البريطانيون في وجه المطالبين بحظرها سلاح الحرية الشخصية واستقلالية المؤسسات الإعلامية، وذلك في سبيل نزع أحقية توجيه النقد أو اللوم من الجهة المعنية، بل ذهبت الصحافة الغربية في كثير من هذه المناسبات إلى اعتبار مبدأ الاعتراض ـ نفسه ـ دليلا على تخلف الرؤية الحضارية وقصور الإدراك والفهم، وإن المجتمع الغربي لا يمكنه التجاوب أو التعاطف مع مثل هذه الأساليب التي تجاوزها الفكر الإنساني وتخطتها الحياة المعاصرة.

وإذا كنا كمسلمين نؤمن ـ انطلاقا من تعاليم ديننا ـ بمبدأ عدم التشهير والترفع عن الأساليب الرخيصة التي تكشف مساوىء الآخرين أو مثالبهم، فإننا لا نقصر هذا الحق على أنفسنا ونستأثر به دون سوانا.

ولكننا نطبقه حتى في حق أولئك الذين يختلفون عنا في سلوكهم الحضاري ورؤيتهم الثقافية، وهذا هو الفرق بين ديمقراطية الغرب وعدالة الإسلام.

***

أزمة حرية الكلمة في الغرب

● لقد كان هدف المقالة التي نشرتها على صفحات جريدة المدينة بتاريخ ٢١/١/١٤٠٨هـ، تحت عنوان «المذكرات التي فجرت قضية حرية الصحافة في الغرب»، هو توضيح للسؤال الكبير الذي يدور في ذهن الفرد العربي عن مفهوم هذه الحرية في المجتمعات الأخرى التي تختلف رؤيتها الحضارية وتكوينها الفكري عن تلك المنطلقات التي تأسست عليها رؤية المجتمع الإسلامي والعربي، وبالتالي فإنه يصبح من المتعذر عقد أي مقارنة بين رؤيتين مختلفتين في التكوين، ومتباعدتين - نسبيا - في استخلاص الحقائق من القضايا الفكرية المجردة.

● والغرب الذي توجهت حضارته، واتفقت آراء مفكريه على حفظ حق ما يسمى بحرية الكلمة لجميع أفراد المجتمع والدفاع عن هذا الحق من فوق المنابر السياسية والإعلامية في كل مناسبة يشعرون فيها - حسب اعتقادهم - بخطر يهدد هذه القيمة الحضارية الهامة، هذا الغرب - نفسه - هو الذي يقع في تناقض غريب تجاه هذا الحق المزعوم، وآخر حدث في سلسلة هذه التناقضات الغربية ما أبدته الصحافة البريطانية من امتعاض كبير تجاه زيارة «ماريه ليبون MARIE LEPON » - زعيم الجبهة اليمينية المتطرفة في فرنسا -، لبريطانيا لإلقاء محاضرة على هامش المؤتمر السنوي لحزب المحافظين، ومع أن تاريخ «ليبون» مليء بالمآخذ الشخصية والسياسية كمشاركته في تعذيب المجاهدين الجزائريين في الحقبة الاستعمارية الفرنسية وتشجيعه على شرب الخمور بصورة مفرطة لبعض أصدقائه والذين لقوا حتفهم بسبب هذه العادة الرذيلة، وأخيرا انفصاله عن زوجته التي رفض مساعدتها فاضطرت للخدمة في البيوت، كل هذا لم يشكل عائقا أمام إعطاء «ليبون» الفرصة ليقول كلمته ويوضح آراءه لأفراد الشعب البريطاني الذين يحظى بشيء من الشعبية بينهم، لقد كان

العامل الأول والأخير الذي تسبب في إعاقة هذا الاتصال ـ حسب رأي رئيس حزب المحافظين «نورمان تيبيت NORMAN TIBBIT » ـ هو تصريح «ليبون» في مؤتمر صحفي عقد في فرنسا والذي قال فيه: «إن قضية الأفران الغازية أثناء الحـرب العـالمية الثانية هي أمر ثانوي. وإن كثيرا من المسيحيين (الألمان وغيرهم) ماتوا من جراء المد النازي الذي أراد أن يكتسح أوروبا عسكريا وفكريا».

* وحتى ندرك أبعاد هذه القضية التي أنست الغرب مبدأ حرية الكلمة الذي ينادى به، وأصابته بكثير من التناقض في مواقفه الفكرية، علينا أن نعرف أن الذي وجه الدعوة إلى الزعيم الفرنسي المتهم بعداء السامية ـ تملقا لليهود ـ هو مستشار يهودي سابق في حزب المحافظين وأحد الممنوحين لقب (سير)، أمـا اسمـه الحقيقي فهـو «الفرد شيرمان ALFORD SHERMAN » وقد عرف «شيرمان» هذا بآرائه العنصرية المتطرفة ضد جميع المهاجرين إلى بريطانيا ـ ماعدا بني جنسه من اليهود، إيمانا منه أن أوروبا يجب أن تظل وكرا لليهود، يحتلون منـابـرهـا السيـاسيـة، ويـوجهـون اقتصادها، ويحددون اتجاهاتها الإعلامية. إن آراء معلنة كهذه لم تثر يوما عاصفة سياسية أو ضجة إعلامية في المجتمع البريطاني، فصدورها من شخصية يهودية هو ضمان لها في أن يتقبلها الآخرون ثم يهضمونها قبل أن ترتفع أصواتهم بشيء من المعارضة والاستنكار.

● كما علينا أن نعرف أن الذي بدأ بمعارضة زيارة «ليبون» هو العضو العمالي في البرلمان الإنجليزي وعضو مجلس النواب اليهودي «جريفل جانير GREVILL JANNER »، ثم أثنى الآخرون وتسابقوا في إظهار الولاء، وكان الرفض عنيفا لزيـارة الضيف الفرنسي خوفا على مشاعر اليهود من أن تخدش، أما أولئك المسلمون الذين عانوا من همجية «ليبون» وأمثاله، عندما كانت فرنسا تدعي أن الجـزائـر جزء منهـا، أو هؤلاء المهاجرون من العرب في فرنسا ـ في الوقت الحاضر ـ والذين يواجهون ـ في قوة وصمود ـ فاشية الحركة اليمينية المتطرفة فإن الغـرب لم تتحرك عاطفته الإنسانية تضامنا معهم ولم يقدم الورود وفاء لذكراهم كما يفعل مع المعذبين في الأرض من غير المسلمين!

● هذا مثال واقعي من أمثلة عديدة يوضح لنا مدى تلك الانتكاسة التي أصيبت بها حرية الكلمة في الحضارة الأوروبية والتي لا يزال يصرخ كثير من زعمائها ومفكريها في وجوه الآخرين، بأنهم أول من تبنى فكرتها ودافع عن وجودها، ومع أن الحقيقة شيء آخر.. فإنه يكفينا اعتبارا أن الغرب بدأ يهدم صرح تلك القيمة الإنسانية المجردة، لقد وفر اليهود له معاول الهدم وما عليه إلا أن يستجيب!

* * *

حديث عن منهجية المستشرقين

● في حوار شامل أجرته مجلة الحوادث في عددها الصادر بتاريخ ١ ديسمبر ١٩٨٨م، تحدث الدكتور كامل مصطفى الشيبي عن الثقافة العربية والفكر الإسلامي، حديثا تاريخيا تعرض فيه لأهم التيارات التي تأثرت بها هذه الثقافة ومن بينها التيار الاستشراقي، وصوَّر ـ من وجهة نظره ـ دور هذا التيار قائلا: «إن مما يؤسف له أن هذه الثقافة التي نعرفها، وهذه المخطوطات التي نعرفها هي في غالبها من تحقيق المستشرقين، مع الأسف، المستشرقون هم الذين بحثوا في القرآن الكريم، هم الذين بحثوا في التفسير، هم الذين فهرسوا الحديث، هم الذين نشروا كتب الجغرافيا، هم الذين حققوا الكتب التاريخية العظيمة كتاريخ ابن خلدون، هم الذين نشروا الكتب الفلكية العربية، هم الذين نشروا سائر الكتب الفلسفية.

● وكنت أتطلع من الكاتب الكريم الذي كان حديثه عن المستشرقين ودورهم في نشر ثقافتنا حديثا تغلب عليه العاطفة ويحدوه الحماس كنت أتطلع أن أجد بعد ذلك تصورا علميا لحقيقة البواعث التي انطلق منها المستشرقون في التنقيب عن تراثنا، وأثر تلك البواعث على مناهج البحث عندهم، ثم النتائج السلبية التي تركتها تلك الأعمال في الفكرين الإسلامي والعربي.

● لقد تكونت في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين صورة مشوهة عن الإسلام استمدت موادها الأولية من مصادر تاريخية بيزنطية شرقية، وأسبانية، ولاتينية، ويذكر الكاتب الأوروبي NORMAN DANIAL «نورمان دانيال» في كتابه: « ISLAM AND THE WEST »، «الإسلام والغرب»، إنه «رغم المحاولات الجدية التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا من أن يتجردوا كليا عنها كما قد يتوهمون».

● ربمـا تجرد بعض المستشرقين من مسيحيته عند البحث في نواح علمية أخـرى، إلا أن هذا لا ينـطبق على دراسـاتهم في الفكـر الإسـلامي أو عن الشخصيات الإسلامية، ولهذا فلا غرابة أن نجد الشاعر الإيطالي المشهور «دانتي» «١٢٦٥ ـ ١٣٢١هـ» يصور شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم تصويرا نربأ عن ذكره هنا، وهو الموقف العدائي ـ نفسه ـ الذي وقفه الكاتب الفـرنسي «دنيس ديدرو» ١٧١٣ ـ ١٧٨٤م ولا يقل موقف «فولتير» ١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م، سوءا عن موقف نظيريه السابقين.

● ولئن ادعى البعض أن تغيـرا جزئيـا طرأ على الدراسـات التي قام بهـا مستشـرقـو القرنين التاسع عشر والعشرين، في تاريخ الإسلام، وحضارته، وأصول عقائده، فهو تغيير حتمته المصالح مع بقاء الصورة الكلية المشوهة عن الإسلام وأهله كما كانت في العصور السابقة، كما انضم إلى العامل الديني عامـل سياسي ظهر نتيجة للصلات الاقتصادية، وخطط التوسع الاقتصادي التي ظهـرت في أوروبـا ولهـذا فليس من المستغـرب أن ينتقل المستشرق الهولندي «سنوك هيرغرونج» ١٨٥٧ ـ ١٩٣٦م، مباشرة من دراسته للإسلام ليشغل منصب مستشار للحكومة الهولندية في الشؤون الإدارية لمستعمراتها الأندونيسية المسلمة، كما كان «لويس ماسينيون» ١٨٣٣ ـ ١٩٦٢م، يستشار على صعيد واسع من قبل الإدارات الاستعمارية كخبير بالقضايا الإسلامية.

● إن هدف الدراسات الاستشراقية هو إيجاد جيل يتنكر لتراث أمته وأصالتها، ويتنصل من تاريخه ويزدريه، ليكون ـ دون وعي ـ أداة طيعة في يد أعداء هذه الأمة.

***

الصهيونية وعدالة الغرب

وافقت الحكـومـة البريطانية في نهاية شهر مايو عام ١٩٩١م على قانون جرائم الحرب واعتباره جزءا من القانون القضائي البريطاني. فما هذا القانون ؟ ومـا البـدايات التي انطلق منها والعوامل التي ساعدت على إبرازه إلى حيز الوجـود بعـد مداولات عديـدة بين مجلس العموم واللوردات البريطانيين وما النتائج التي يترتب عليها تطبيق مثل هذا القانون ؟

هذا القانون هو من مشاريع مركز سايمون روزنتال اليهودي المعروف بصائد النازيين، وصاحب الكتاب المعروف «العدالة وليس الثأر» "Justic Not Ven-geace" والذي قام منذ منتصف الثمانينات الميلادية بجولات عديدة في العالم الأوروبي بهـدف تعقب الشخصيـات الأوروبيـة غيـر المتعاطفة مع الحركة الصهيونية ورميها بتهمة التعاون مع الحركة النازية، وكانت شخصية الرئيس النمساوي الدكتور «كورت فالدهايم» هدفا من أهداف المركز ورئيسه الموغل في تعصبـه لصهيـونيته، وعلى الرغم من فشل المركز في إثبات التهمة على الرئيس المذكور إلا أنه تحقق عن طريقها عدد من النتائج التي مازالت الحركة الصـهيونية تكسب من ورائها تأييد عدد كبير من المؤسسات الغربية المختلفة. لقد انطلقت حركة «روزنتال» من النمسا إلى بريطانيا لتنال بافتراءاتها شخصية هامة من شخصيات المجتمع البريطاني وهي الأميرة «مايكل» أميرة كينت متهمة والدها الألماني الأصل والذي توفي منذ سنين عديدة بأنه قبل براءة نازية في حياته، وهي ـ أي الحركة ـ مع عدم توفر الأدلة القطعية لديها لإثبات مثل هذه التهم إلا أن أبواقها في الصحافة والإعلام البريطاني طالبت بأمور عديدة منها وجوب إنهاء الحياة الزوجية بين الأميرة الكاثوليكية، وزوجها الإنجليكاني، وهو تصرف يدل على النزق الصهيوني وتطاوله، كما يثبت سيطرته على شؤون كثيرة متصلة بالمجتمعات الغربية وهي شؤون تصنف في دائرة الخصوصيات التي

يفترض عدم منازعتها أية جهة أخرى. وبعد توقف الحملة التي تناولت شخصية من شخصيات الأسرة البريطانية المالكة، قدم المركز اليهودي إلى مقر رئاسة الوزارة البريطانية لائحة بأسماء سبعة عشر شخصا زعم أنهم مجرمو حرب في بريطانيا، ولقد سبق تقديم هذا الطلب قيام رئيسة الوزراء البريطانية ـ آنذاك ـ «ثاتشر» بزيارة إلى الكيان الصهيوني وهي أول زيارة يجرؤ على التفكير فيها والقيام بها رئيس بريطاني منذ انتهاء مدة الانتداب البريطاني على أرض فلسطين وقيام الكيان الصهيوني فوق تلك الأرض المغتصبة، ولقد أعد لتلك الزيارة اللوبي اليهودي الذي كان يشكل قوة كبيرة ليس داخل الدائرة اليهودية الانتخابية للرئيسة ثاتشر في شمال لندن فقط، بل في داخل مقر الحكومة البريطانية نفسها حيث كانت أهم الحقائب الوزارية بأيدي يهود يخفون صهيونيتهم أمام أفراد المجتمع الإنجليزي ولكنهم لا يترددون في مكاشفة الحكومة بمطالب الحركة الصهيونية ويرسمون طرق تنفيذ تلك المطالب، ويذكر عضو مجلس العموم البريطاني وأحد أعضاء مجلس التفاهم العربي ـ البريطاني «سيريل تاونسند» في جريدة الحياة عدد ٢٩ مايو ١٩٩١م ـ أن رئيسة الوزراء أعطت وعودا في أثناء زيارتها بإمكان محاكمة من تَزْعُم الحركة الصهيونية أنهم مجرمو حرب في الحرب العالمية الثانية، وبالتالي فقد حظي طلب المركز اليهودي بمباركة الحكومة البريطانية آنذاك.

وأعدت وزارة الداخلية البريطانية في عام ١٩٨٩م بعد سلسلة من التحقيقات قرارا يتضمن الموافقة على إصدار تشريع يتم من خلاله محاكمة المتهمين، إلا أن مجلس اللوردات رفض هذا القرار الذي حظي بعد عرضه عام ١٩٩٠م على مجلس العموم بتأييد ستين عضوا فقط، وبما أن مجلس اللوردات هو السلطة العليا التي يرجع إليها للنظر في القرارات التي يتخذها مجلس العموم، إلا أنه يملك حق الاعتراض ولا يملك حق التنفيذ ؟ لذا فقد تجاوز رئيس الحكومة البريطانية الحالي «جون ميجور» قرار مجلس اللوردات الذي رفض للمرة الثانية في هذا العام صدور مثل هذا التشريع الذي لم يصوت لصالحه سوى أربعة وسبعين نائبا من أعضاء مجلس العموم في مقابل أكثر من مائتي صوت أبدوا اعتراضهم على القرار نفسه ومن بينهم شخصيات سياسية وفكرية

هامة مثل رئيس الوزراء السابق «إدوارد هيث» ونائب رئيس الوزراء في حكومة تاتشر «سير جيفري هاو» ووزير الدفاع السابق «سير إيان جليمور» وكان تجاوز «ميجور» لصالح تنفيذ قانون البرلمان القاضي بمحاكمة عدد محدود من الشخصيات الطاعنة في السن وبعد مضي أكثر من نصف قرن وهي مدة زمنية يفترض بسبب طولها ضياع كثير من حيثيات القضايا التي تزعم حركة مركز «روزنتال» تورط المتهمين فيها، ويمكن تفسير هذا التجاوز من حكومة «ميجور» بأنه استمرار لوجود الكتلة التاتشرية داخل حزب المحافظين والمتعاطفة مع القضايا اليهودية، كما يمكن رده إلى ما يشاع حول الجذور اليهودية لرئيس الوزراء الحالي حيث ذكرت صحيفة «الأوبزرفر» البريطانية في أحد أعدادها أن الاسم الحقيقي لوالد رئيس الوزراء البريطاني هو «إبراهام» وقد اضطر إلى تغيير اسمه اليهودي إلى اسم مسيحي خلال الحقبة التي كانت تخشى فيها الجماعات اليهودية من إظهار هويتها الحقيقية.

وهنا لابد أن ندقق النظر في مواقف الحكومات البريطانية من بعض القضايا التي تفوق في أهميتها وما يترتب عليها من نتائج قضية محاكمة مجرمي الحرب مثل قضية حلقة «كيمبردج» للتجسس والتي كان من أهم أعضائها الجاسوس المعروف «انتوني بلنت» والذي كان يشغل منصب المستشار الفني للقصر الملكي البريطاني، والذي أكدت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة «تاتشر» خيانته لصالح الاتحاد السوفييتي وذلك في مجلس العموم ١٩٧٩م، وتجريده من منحة التكريم الملكية التي سبق له الحصول عليها، وكذلك قضية الحركات الإرهابية الصهيونية مثل «الأرجون» والتي تسببت في اغتيال بعض الشخصيات البريطانية المسؤولة، كما قامت بتفجير فندق الملك «داود» في عام ١٩٤٦م، مما حدا بالحكومة البريطانية - وهي التي كانت تتولى آنذاك - الانتداب على الأراضي الفلسطينية - إلى إصدار قرارات رسمية تتضمن إدانة أفراد العصابة الصهيونية ومن بينهم «مناحيم بيجين» و «إسحاق شامير» وطلبهما للمحاكمة، وهو أمر موثق في الدوائر الأمنية البريطانية حتى الوقت الحاضر وكذلك قضية «بلنت» ودعوة رئيسة الوزراء «ثاتشر» في بداية الثمانينات الميلادية إلى قفل ملف حلقة كيمبردج التجسسية مع خطورتها،

وكـذلك فيمـا يتصـل بأعضاء الحركات اليهودية الإرهابية الذين بدلا من أن تأخذهم السلطات البريطانية إلى المحاكم لتحقيق العدالة فإنهم استقبلوا فوق الأراضي البـريطانية استقبال الزعماء الفاتحين، وأفردت الصحف مساحات كبيـرة لذكـر تفاصيل حياتهم ومن بينها صفحات سوداء من سوابق الإجرام وإدانات القتل والتعذيب التي ارتكبوها علنا في الماضي والحاضر على حد سواء.

إذا دققنا النظر في هذه الجرائم والمواقف المنبثقة عنها لثبت لنا أن قانون جرائم الحرب الذي سوف يتم تطبيقه في بريطانيا على حفنة من الرجال المرضى والمسنين بذريعـة التعـاون مع الحركة النازية هو قانون انتقائي سارع إلى التصويت عليه أعضاء تعرضوا لضغوط شديدة من حركة «سايمون روزنتال» الانتقالية، وتعجلت الحكومة في إقراره سيرا مع النزعة الغربية لتحقيق الرضا الصهيوني، فالغرب لا يطيق غضب اليهود، ويفقد عقلانيته أمام افتراءاتهم وأباطيلهم.

***

«اللوموند» والإسلام

لا تزال بعض دوائر الاستشراق حبيسة الأفكار التي ورثتها عن عصور الاستعمار. وليس من دليل واضح يقوم على هذه الدعوى، ولا من إثبات يؤكد تجذرها في بعض المجتمعات الغربية مثل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية المقروءة منها والمسموعة والمرئية بين الحين والآخر من استفزازات لمشاعر المسلمين وتحد صارخ لوجودهم ومنطلقاتهم الدينية والحضارية والثقافية.

وإذا كان البعض وضع من قبل حدودا للتفريق بين مواقف هذه المؤسسات من قضايا الأمة العربية والإسلامية، فإن هذه الحدود قد تلاشت نتيجة لتوحد الأهداف في سبيل النيل من هذه الأمة التي تقف فريدة ومتميزة بين أمم الأرض في مثلها وتعاليمها وتقاليدها، ثم للسعي الحثيث الذي تقوم به المؤسسات الاستشراقية لكسب عطف ورضى الحركة الصهيونية العالمية.

فهذه صحيفة فرنسية «وهي صحيفة اللوموند» كانت توصف بأنها مثال للموضوعية والنزاهة والاتزان، فإذا بها تنحدر إلى قاع العنصرية البغيضة والحقد الأعمى، وذلك عندما نشر رسامها «بلانوتوس» في عدد الصحيفة الصادر بتاريخ يوم الخميس ١٢ يونية ١٩٩٠م، رسما كاريكاتوريا يصور فيه فتاة معلقة في السجن الاحتياطي لأنها قرأت التقرير الصادر عن منظمة العفو الدولية، وفي المقابل شخص يحمل بطاقة كتب عليها اسم القرآن "CORAN" وهو يخاطب الحارس بقوله: «والأخطر من ذلك هي أنها ضبطت وهي بملابس الاستحمام» (عن صحيفة العلم المغربية ٢٢/١٢/١٤١٠هـ).

إن هذا التحدي الصارخ لمشاعر المسلمين الذين يقيمون في الأراضي الفرنسية ولغيرهم أيضا من مسلمي العالم، يوضح مدى الحاجة الملحة لموقف إسلامي يضع حدا للانتهاكات المتزايدة التي لا تفتأ بعض المؤسسات

الاستشـراقية الغربية في المجاهرة بها تعمدا منها في شحن الفرد الغربي بالمشاعر السلبية تجاه الدين الإسلامي والفرد المسلم.

ولن يتوقع من المسلمين ـ بالطبع ـ أن يكونوا متسامحين أو غير مبالين حتى عندما ينال الآخرون من عقائدهم، ويسخرون من الكتاب الكريم الذي وضعه الله أمانة في أعناقهم وشرفهم بصونه والدفاع عنه.

***

من يتابع ما يصدر من ترجمات لمعاني القرآن الكريم ؟

تعتبر ترجمة المستشرق الفرنسي «جاك بيرك» لمعاني القرآن الكريم والصادرة عن «دار سندباد» الترجمة الثالثة في موسم فرنسا الثقافي لعام ١٩٩١م، بعد ترجمتي «رينيه خوام» و «أندريه شوراكي»، كما تصل برقم الترجمات الفرنسية، في هذا الباب، إلى أربعين ترجمة، بينما يصبح عدد الترجمات في العالم - بعد صدور هذه الترجمات الفرنسية - ستمائة، وكانت البداية هي ترجمة الأب «بيار» أحد رهبان دير «كلوني» والتي تمت خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

● و «جاك بيرك» هو: المدرّس السابق في الكوليج دي فرانس، والصديق الشخصي الحميم للأديب العربي «طه حسين» ويبدو أثر هذه الصداقة على «بيرك» في محاضرته التي ألقاها أخيرا عن صاحب «الأيام»، ودافع عن مواقفه جميعا حتى تلك التي أثارت الرأي العربي والإسلامي ضده، والتي يبدو أن «طه حسين» لم يتخل عنها حتى أخريات حياته، ولكنه قدم بعض التنازلات، في أثناء الأزمة التي تفجرت بعد صدور كتابه «في الشعر الجاهلي» وهي تنازلات لا تبرّئه من شبهة الطعن في بعض المسلّمات التي لا تقبل الجدل والمناقشة.

ولعل «بيرك» يحتفظ بشيء من الجميل، لصديقه طه حسين، بعدما رشحه لعضوية «مجمع اللغة العربية» في القاهرة سنة ١٩٦٨م، كما تذكر ذلك صحيفة «الحياة» في عددها الصادر بتاريخ (١٦ يناير، ١٩٩١م).

وكما شغل «طه حسين» الناس في بيئته العلمية بين الأزهر وجامعة القاهرة ردحا من الزمن، فإننا نجد سيرة صديقه «بيرك» محاطة بكثير من صور التقلب بين مذاهب عقائدية وفكرية متعددة، فلقد كان رفيق درب لمنظري الحركة الشيوعية في بلاده.

ولعـل هذا الانغمـاس، لفترة من الزمن، هو الذي دفعه لاعتناق المذاهب الأدبيـة المنبثقـة عن الفكر الشيوعي، كالبنيوية، والسيمائية، ولقد استخدم «بيرك» المنهجين الفكريين السابقين في بعض دراساته الاستشراقية للفكر العربي.

● لا أستطيع إبداء رأي، أو إعطاء حكم علمي، حول هذه الترجمة التي صدرت في طبعتين، إحداهما: مجلدة وممتازة، وتبلغ صفحاتها ثمانمائة وألف صفحة، والأخرى: عادية في ثلاثة عشر ألف صفحة، لأنني لم أتمكن من الإطلاع عليها.

ولكن المعروف أن كثيرا من المستشرقين لا يستطيعون الكتابة عن الإسلام وعن القـرآن خاصة، بتلك المنهجية التي كثيرا ما يدعون إليها، ويطلبون من الآخرين الالتزام بها، ويعود ذلك إلى مواقف عقدية، وتاريخية، وحضارية، وهي مواقف تتأثر كثيرا بعوامل النشأة والتلقي في البيئات العلمية الغربية التي لم تفلح بعد في تكوين تصور مستقل ومتجرد عن الإسلام وحضارته ومجتمعاته.

● إن صدور أعداد كبيرة من الترجمات عن معاني القرآن الكريم، بجهود غربية، يجب أن يدفـع المنـظمـات الإسـلاميـة المعنيـة، وخصوصا «رابطة العالم الإسلامي» لتكوين هيئة خاصة لمتابعة ما يصدر في هذا الشأن، وإخضاعه لدراسات علمية متخصصة، خصوصا إذا ما علمنا أن هذه الترجمات كثيرا ما تقع في أيدي بعض المسلمين، من غير العرب، ولعلهم هم الأحوج إلى معرفة الإسلام، وأحكامه، ومقاصده، معرفة أبعد ما تكون عن التشويش، والاضطراب الفكري.

* * *

المكونات الذاتية لصورة العربي في الغرب

لقد أصابت الشخصية العربية انتكاسة كبيرة، ولحق بها ضرر فادح وذلك كنتيجة حتمية للأزمة التي شهدتها منطقة الخليج في الأشهر الماضية، وما نعني بالانتكاسة والضرر هنا هو ازدياد قتامة صورة هذه الشخصية في الإعلام الغربي وهي صورة لم تكن ـ يوما ـ مشرقة ولكن لم تبلغ ـ رغم كل الظروف ـ ما بلغته اليوم من سلبية وما وصلت إليه من مستوى متدن. وقد تعودت وسائل الإعلام في البلاد العربية والمؤسسات الثقافية النظر إلى هذا الموضوع من زاوية واحدة وهي عدم قدرة الآخر. (أي الحضارة الغربية) على استخدام مقياس متجرد عند تصديه لشخصيتنا بالدراسة، أو تحليله لجوانب معينة ترتبط بأخلاقياتنا وسلوكنا، كما أننا كثيرا ما نغالي في قدرة اللوبي الصهيوني على تشويه أبعاد هذه الصورة وإلصاقه بها بعض السمات التي يرى أنها سوف تجلب نقمة الفرد الأوروبي أو تثير اشمئزازه وتتسبب بالتالي في نفوره من الشخصية العربية مما يعيق وجود اتصال حضاري إيجابي بين الشخصيتين الأوروبية والعربية.

إلا أن الرؤية الموضوعية يجب أن تدفعنا إلى دراسة تلك العوامل التي يمكن أن توصف بأنها من صنع أنفسنا ومن غرس أيدينا، وهو نقد ذاتي يجب ألا نكابر في إخضاع أنفسنا له لأنه ينبع من تعاليم ديننا التي تحث الإنسان على محاسبة نفسه، والإلتفات إليها بين الحين والآخر.

كما أن هذا النقد ضروري لكل المجتمعات التي تعتزم ـ حقا ـ التعلم من أخطائها، وتتطلع إلى بلوغ مكانة حضارية سامية بين المجتمعات الإنسانية المختلفة في توجهاتها والمتباينة في منطلقاتها.

لقد جَنَت الشعارات الجوفاء التي رفعتها بعض الأنظمة العربية، كالثورية والقومية على مسيرة الأمة العربية وعلى شخصيتها الحضارية وذلك لأنها

شعـارات تنـطلق من فراغ فكري وتتوسل رفع الصوت وتشنج الأعصاب في خطابها، وتعتمد في تحقيق أهدافها على الوسائل الدموية البعيدة كل البعد عن المنطلقات الحقيقية لتراث الأمة ومسلماتها.

وكانت هذه الأنظمة تتعمد إظهار هذه الدموية وسط العواصم الغربية التي يعتبر سكانها استعمال منبه السيارة سلوكا مشينا فكيف بهم إذا استيقظوا من مهاجعهم على أصوات تبادل العيارات النارية بين مساكنهم، وهم القوم الذين إذا مالت الشمس إلى المغيب ـ والتي قليلا ما يتحقق لها إرسال أشعتها على أرضهم ـ خفوا إلى دورهم بحثا عن الهدوء والسكينة، فإذا تَنَاثُر الدماء البريئة من أجساد بني قومنا يملأ أنفسهم بالهلع ويسكنها بالرعب.

ولم تسلم بيوت الله التي أقامها المسلمون في الغرب من تربص المأجورين لهذه الأنظمة بها، وبأولئك الذين يؤمّونها ممن مَنّ الله عليهم بالتمسك بتعاليم دينهم الحنيف وشريعته السمحة ، ولعلي لم أنس ما حييت تجربة مررت بها شخصيـا في مطلع الثمـانينات الميلادية عندما وطئت قدماي لأول مرة بلاد الغرب فأحببت أداء صلاة الجمعة مع الجماعة فسعيت إلى مسجد «ريجينت بارك» الشهير وسط العاصمة البريطانية، ولم نكد ننته من الصلاة حتى رأينا جمـوعـا تتدافع وسمعنا أصواتا ترتفع، لقد قتل الصحافي العربي المعروف «محمد مصطفى رمضان» ببضع طلقات صوبها إليه بعض من أبناء جنسه، ولقد كان التزام الرجل وتمسكه بدينه سببا في فقدانه حياته، ولقد أدت هذه الحادثة فيما بعد إلى أن يقوم رجال الأمن في المناسبات الإسلامية ـ وأحيانا عن طريق طائـرات الهليـوكبتـر ـ بحراسة المساجد، ولم تسلم بيوت الله من الاغتيـالات التي كانت تدبـرها الأنظمة بمجتمعات الطلاب التي شهدت هي الأخـرى في منتصف الثمانينات وخصوصا في مدينة ـ مانشستر ـ حوادث اعتداء وقتل شنيعة وكان ضحيتها عدد من الطلاب العرب، وتسببت بالتالي في تعميق أبعاد الصورة السلبية للفرد العربي، وأفسحت لمصطلحات الإرهاب والقبلية والتعصب أن تأخذ طريقها إلى وسائل الإعلام الغربي عند التعرض للقضـايـا العربية أو الشؤون الإسلامية، ومع أن هؤلاء الذين يقدمون على ارتكاب هذه الجرائم في ديار الغرب لا يمثلون إلا فئة محدودة هي أبعد ما تكون

عن الإسلام وتعاليمه ومنطلقاته إلا أن ذلك لا يعفينا من المسؤولية فكلنا في نظر الغـرب ـ للأسف الشديد ـ ذلك الإنسان الذي لا يحل مشاكله أو يصل إلى أهدافه إلا عن طريق طلقة النار، بينما يرى الغربيون أنهم تجاوزوا هذا التصور غير الحضاري واستبدلوه بتصور آخر يقوم على الكلمة والحوار.

وإذا كانت الأنـظمـة التي منيت بهـا المجتمعـات العـربية من ماركسية واشتـراكيـة، وثورية، وتقدمية قد تسببت في تخلف وانهيار المجتمعات التي وصلت إلى الحكم فيها عن طريق سفك الدماء، فإن جنايتها على إفساد الصورة الحضارية العامة للأمة العربية لا تقل سوءا عن ذلك الخراب والدمار المادي الذي أشرنا إليه، وإذا كانت تلك الأنظمة قد جنحت إلى تلك الأساليب التي لا تقرها شريعتنا التي تدعو في وضوح إلى الحسنى، وتؤمن بالكلمة الطيبة، فإن أفرادا من الأمة جنحوا ـ أيضا ـ إلى سلوكيات أخرى ساهمت في صنع واقع مؤسف وذلك من خلال الممارسات التي تدخل ضمن دائرة جهلنا بطرق التعامل مع أفراد المجتمعات الغربية ومؤسساتها، فالغربي بطبيعته ينفر من أساليب الأمر المصحوبة بتجهم الوجه والمقترنة بإيماءات اليدين، وتعجب من عربي ينسى ذلك القاموس الحضاري الذي تزخر به اللغة العربية التي كانت ـ يوما ـ لغة العلم والفكر والمنطق، ثم يستعمل كلمات هي أكثر ارتباطا بمفاهيم التسلط والعنجهية حتى عند احتياجه إلى شربة ماء أو كسرة خبز يأتيه بهما نادل يعمل في مطاعم الغرب أو حوانيته، ولعله إذا حصل على ما يريد نسي كلمة الشكر وعبارة الامتنان، ثم انصرف والكبر يملأ رأسه والعجب يتملك عليه نواحي نفسه. ويدخل في دائرة التعامل السلبي مع الآخر الرغبة الجامحة لدى بعضنا أحيانا في تقليد الأوروبي في كل شيء وهو أمر يثير استخفاف الطرف المقابل إن لم يكن حقده وكراهيته.

إن تمسك الفرد المسلم والعربي بعاداته وتقاليده النابعة ـ حقا ـ من دينه وتـراثـه تجعله في نظر الغـربي كيـانـا متميزا له خصائصه التي لا يرضى بالمساومة عليها أو التساهل في شأنها، كما أن هذه الخصائص لن تمنعه يوما من التحدث إلى الآخر أو الجلوس إليه مستمعا أو محاورا، أو الثناء على ما يراه صالحا من طرق تعامله والاستفادة منه كأسلوب حضاري شريطة ألا يكون ذلك

متعارضا مع القواعد الشرعية التي أمرنا الله بمراعاتها في كل ما يصدر عنا من قول أو فعل.

كثيـرة هي العوامل الذاتية التي ساهمت في تكوين الصورة المشوهة عنا كأفراد وأمة وذلك يحتاج إلى وقفات عديدة لاتكفي فيها مقالة واحدة مثل هذه، ولكنها محاولة متواضعة أرجو أن يعضدها بآرائهم المتخصصون في ميادين البحث الإعلامي والحضاري.

***

الباب الثالث

الدين والإبداع

نحو نقد إسلامي وفكر أصيل

● يظن البعض ممن لا يملكـون الوسائل العلمية الضرورية لمعرفة حضارة الغـرب، وفكـره، وأدبه، أن الغرب قد انفصل ـ بدعوى العلمانية ـ عن دينه، وتراثه، ومنطلقاته وبالتالي فلا حجر ـ هناك ـ على فكر يهاجم الدين، ولا ثوابت ينطلق منها الشاعر في عملية إبداعه، أو الروائي في أحداث روايته، أو الناقد في تحليله وتقييمه.

بينما يقول الواقع الحقيقي لهذه المجتمعات شيئا آخر، وليت البعض من أدعياء المعرفة، في عالمنا الإسلامي والعربي، كلف نفسه جهدا لمعرفة هذه الحقيقـة، والتثبت منهـا. وعنـدها يستطيع أن يوجه أدواته المعرفية الوجهة الإيجابية التي تنأى عن الاحتمالية، وتبتعد عن الشطط، وتكون وسيلة فعالة لخدمة تراثه وفكره، بدلا من أن تكون النقيض لذلك كله.

● ففي بريطانيا ـ مثلا ـ البلد الذي يعده الكثير من أنصار التغريب مثالا لحرية الكلمة، وديمقراطية الفكر: يحرِّم القانون الإنجليزي أي انتهاك لتعاليم الكنيسة الإنجليزية، ولهذا فأنت لا تقرأ في صحيفة معتبرة، ولا تسمع في قناة تليفزيونية ـ حكومية كانت أو تجارية ـ خروجا على مضمون هذه التعاليم.

بل إنك لتجد صاحب الاتجاه اليساري أكثر التزاما بهذه الأطر الدينية من نظيـره المحافظ الذي يُضرب به المثل في احترام الفكر المسيحي، والتقاليد الاجتماعية، ومع هذا فلا يعتبر ذلك كله من كلا الجانبين تحجرا في الرؤية، أو تعصبا في الفكر، أو تزمتا في الدين.

وهل نجد مثالا نورده ـ هنا ـ على التزام المؤسسات غير المُحَافِظة بالتعاليم الدينية المسيحية خيرا من قيام حزب العمال البريطاني بافتتاح مؤتمره السنوي بالصلوات المسيحية، وافتخاره بدخول كافة أعضائه للكنيسة، كدليل على ولاء هذه المؤسسة لدينها وتراثها، وهو ما يجعلها ـ في الوقت نفسه ـ في موضع

الثقة والائتمان على حياة الأمة وشؤونها.

وفي الوقت الذي تمثل فيه هذه المؤسسة ما يسمى بالاتجاه التقدمي فإنها ترفض أن ينتمي إليها أي عضو يؤيد الاتجاه الماركسي أو الشيوعي، ولهذا كان رفضها واضحا وقويا لرغبة الكاتب «طارق علي» الهندي الجنسية في الانتماء إليها، وهذا الكاتب هو أحد أصدقاء «سلمان رشدي» الذي أثار كتابه «آيات شيطانية» موجة من السخط والغضب في الأوساط الإسلامية، لما يتضمنه من هجوم على الأنبياء تحت ستار ما يسمى بمذهب الفن والخيال.

● أمّا في ميدان الأدب والثقافة ـ فإن من يظنه نقاد العالم العربي مجدِّدا في أفكاره وتقاليده الأدبية، وهو الشاعر الأمريكي الأصل، البريطاني الثقافة «توماس ستيرنز إليوت» T.S. Eliot ١٨٨٨ ـ ١٩٦٥م فإن شعره يتبلور حول الفرد المنقذ، والدولة المثالية لديه دولة كنسية تشرف على التعليم فيها منظمات رهبانية، وطابعها إقطاعي. إنه يصرح قائلا كما يشير المرحوم الدكتور عمر فروخ: «إنه كلاسيكي الأدب، كاثوليكي أنكليكاني المذهب»(١).

وتظهر كلاسيكية «إليوت» واحترامه للتراث الإنجليزي القديم عند دراسته للشاعر الإنجليزي «بن جونسون» Ben Jonson، وتبرز صورة هذا الاحترام في قوله: «عليّ أن ألوم نفسي إذا لم أتقيد بمبدأ الاحترام عند دراستي لهذا الشاعر»(٢)، وهو الأسلوب نفسه الذي اتبعه في دراسة عدد من الشعراء الإنجلين، مثل «وردز ورث» Words Worth و «كوليرد ج» Coleridge، و «شيللي» Shelley، و «كيتس» Keats (٣)، ويبين الأسباب التي دعته لتأليف قصيدته المعروفة «الأرض اليباب» The Waste Land وهو إعادة بناء إيمان الفرد الأوروبي الذي احتواه الفراغ الروحي بعد أحداث الحرب العالمية الأولى، وانتشار بعض الأفكار المناقضة لمفهوم الإيمان.

إنه أراد بقصيدته ـ حسب تعبيره ـ أن يغسل أدران الحياة عن نفسيّة الفرد

---

(١) عمر فروخ: هذا الشعر الحديث، بيروت، ١٣٩٨هـ، ص١٩٤ .

(٢) T-S-ELIOT, THE USE OF POETRY AND THE USE CRITICISM U.K, 1980, P.53

(٣) المصدر السابق: ص٦٧ ـ ٦٨ .

الذي ينتمي إلى مجتمعه ـ في عصر الشاعر ـ وذلك لا يكون إلا من خلال الشعائر الدينية التي عندما يتفيأ ظلالها الناس فإنهم سوف يشعرون بالطمأنينة والسكون[١].

ومعلوم بالضرورة أن الدين الذي يراه «إليوت» منقذا للبشرية من أزمتها الحضارية، هو الدين الكاثوليكي المسيحي.

وإذا كان هذا الشاعر قد بلغ هذا المستوى الكبير من الإيمان بدينه والإخلاص لتراثه اللاتيني[٢]، فهل وعى أنصار التجديد الهدف من وراء دراسة تراث الأمم الأخرى، أو أنهم يرددون الأسماء، ويهتفون بمقاطع القصائد، بكل سذاجة واستلاب فكري، لا يخدم أهداف الأمة، ولا ينهض بفكرها، ولا يرتقي بمفهوم العلم والثقافة لديها.

● إن الذي قادني إلى هذه المقدمة هو كتاب الأستاذ الفاضل «جمعان عائض الزهراني» الذي صدر في سلسلة «دعوة الحق» عن «رابطة العالم الإسلامي» تحت عنوان «أسلوب جديد في حرب الإسلام» وقدم له فضيلة الشيخ «صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ».

ففي هذا الكتاب تتضح معالم الصورة بين ثقافتين: إحداهما يسعى مفكروها وأدباؤها وشعراؤها ـ ما وسعهم الجهد ـ لتأصيلها بالعقيدة ـ رغم ما طرأ عليها من تغيير وتحريف ـ وإغنائها بمعالم التراث اللاتيني القديم، واستيحاء رموزه ودلالته، إنها الثقافة الأوروبية، والأخرى الثقافة الإسلامية والعربية التي تواجه حربا شرسة من بعض العناصر الهدامة.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما ذكرنا «أدونيس» كمثال لهذه النوعية من الكتّاب الذين يحاولون هدم الكلمة واللغة والدين والفكر الإسلامي الحق، من خلال توجيههم لمسيرة الأدب العربي وجهة معيّنة، تخدم شعوبيتهم، وتؤكد على مدى الفساد الذي تنطوي عليه أفكارهم، فهو ـ في محاولته لتثبيت مذهب فصل الشعر عن الأخلاق والدِّين، ـ الذي كثر للأسف المنادون به في عالمنا العربي

---

(١) STEPHEN COOTE, THE WASTE LAND, Benguin Book, 1985, P: 86-87

(٢) Northropfr ye, T,S, ELIOT, An Introduction United States Of America, 1981, P. 67

ـ لم يجد شاعرا يستشهد به سوى أبي نواس، فنجده يقول: «هكذا يؤكد أبو نواس فصل الشعر عن الأخلاق والدين رافضا حلول عصره، معلنا أخلاقا جديدة، هي أخلاق الفعل الحر والنظر الحر، أخلاق الخطيئة، فالنواسية استقلال يثير ويحرك؛ وقوف على حدة، يغري ويشجع، مقابل المجتمع وأخلاقه، ضمن المجتمع وخارجه في آن، والإنسان النواسي هو الإنسان العائش مع ذاته، المتّخذ من العالم كله مجالا لتوكيد ذاته الساخر من القيم العامة النهائية، ومن القائلين بها والمقيمين عليها»[1].

هل هذا هو الأدب الذي تحتاجه الأمة ؟ وهل أبو نواس يمثل الحركة الشعرية الناتجة عن وعي صحيح بالمسار الفكري للأمة، والمنهج الحق الذي اتسم به الإبداع العربي الذي يستلهم عقيدة الأمة، وتراثها، ومرتكزاتها ؟.

وهل الوقوف في وجه الأخلاق يفسح المجال أمام إبداع أكثر إشراقا، وفكر أرفع مستوى ؟!

وهل السخرية من القيم والفضائل مجال للتنافس بين الأمم والشعوب ؟.

لا غرابة ـ بعد ذلك ـ أن نجد من يتسلل بين صفوف الأمة، من أنصار «أدونيس» فيعلن أن النقص فضيلة، والهدم إبداع، وتكسير الحواجز هدف سام، تسعى إلى تثبيته وتأصيله وسائل الشعر والفن، على حد سواء.

إن «أدونيس» يعلن من منبر إحدى العواصم العربية، كما يذكر الأستاذ الزهراني عن توجهه الفكري قائلا: «أنا شعوبي وشاعر».

«أعترف بأنني مخرب عظيم».

ولا أجد تعليقا مناسبا على هذا التحدي السافر لمشاعر الأمة، والهذيان المحموم الذي ليس له من هدف سوى عزل الأمة عن دينها وتراثها، وبث الروح السلبية بين أبنائها، إن التعليق المناسب هو ما ذكرته «المجلة العربية» والذي استشهد به الكاتب، حيث قالت في عددها الصادر بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٤٠٩هـ: «لا تعليق. ليس بعد الكفر ذنب، وليس بعد الفخر بالتخريب صلاح»!.

وفي آخر زيارة له لإحدى الدول العربية تحدث «أدونيس» عن مسألة

---

(١) أدونيس (علي أحمد سعيد): مقدمة للشعر العربي ـ بيروت، ١٩٧١م، ص٥٣ .

الاستقطاب أو الانفصام في المجتمع العربي، مؤكدا أن الدين مسألة شخصية، فلا يجوز أن نجعله مهيمنا على الحياة، يعني: يريد أن يقبع الإسلام في المساجد، ويعود أدراجه، ليترك الساحة خالية لأضاليله وهذيان أمثاله [1].

إن «أدونيس» ينطلق ـ في تصوراته، سواء كانت التي ضمنها كتابه «الثابت والمتحول» أو الأخرى التي يهذي بها بين وقت وآخر ـ من فكرة واحدة، مؤداها أن أهل السنة والجماعة ـ بتمسكهم بالقرآن والسنة ـ كانوا سبب تأخر الحضارة الإسلامية، وأن من خرجوا على القرآن والسنة، كانوا وحدهم من النقاط المضيئة في هذا التاريخ، وهذه الفكرة نفسها سبق «أدونيس» إليها المستشرق م.س.ديماند، الأمين السابق لقسم فن الشرق الأدنى بمتحف «متروبوليتان» بنيويورك وذلك في كتابه «مذكرة الفنون الزخرفية الإسلامية» [2].

ولعلي لا أستطيع أن آتي على كل الأدلة والشواهد العلمية الموثَّقة التي تضمنها كتاب الأستاذ الزهراني، والتي تشير إلى ارتباط التيار الأدونيسي بالمذاهب الفكرية العالمية الهدامة، مما يجب معه التنبيه والحذر من مغبة تغلغل الدراسات التي تتزيا برداء العلمية والمنهجية، مع أنها ـ في حقيقة الأمر ـ تهدف إلى استلاب الهوية العربية، وهدم أطر الفكر الإسلامي المعرفي الصحيح الذي استطاعت أمتنا ـ من خلاله ـ فرض وجودها بين الأمم الأخرى، وليس من خلال رفض الأخلاق، وانتهاك المحرم، والتحرر من رقابة المنطق والتقاليد [3]، كما يدَّعي بعض الدارسين وفي مقدمتهم «أدونيس».

---

(١) مجلة المجتمع، العدد ٩٤٦، الثلاثاء، ٢١ جمادى الأولى، ١٤١٠هـ، ص١٥ .

(٢) أحمد بسام الساعي: الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، جدة، ١٤٠٥هـ: ص١٠٦ .

(٣) الشعرية العربية: بيروت، ١٩٨٥م: ص٦١ ـ ٦٣ .

هذا الازدراء إلى أين ؟

تميزت العصور الماضية التي شهد فيها الفكر العربي والثقافة الإسلامية انطلاقتهما الحضارية بسمات علمية متميزة كانت ـ بلا شك ـ دافعا إيجابيا وراء ذلك العطاء الإنساني الذي شاركت به أمتنا في مجالات متعددة، شملت العلوم الطبيعية، والفلسفة، والأدب، والفنون.

وعلى الرغم من العداء الذي يناصب به الغرب هذه الأمة في تاريخها وتراثها ـ إلا أن هذا العداء لم يمنعه من أن يدوّن ثمرات العلوم الإسلامية تدوينا يشوبه التشويه والخلط ـ أحيانا ـ ثم نجده في مواضع أخرى يذعن إلى الحق، فلا يعترف فقط بما خلّفه علماء المسلمين من إبداعات وإضافات، بل يذكر تلك الروح العلمية السامية التي ميزت المسلمين عن غيرهم من الأمم الأخرى في القرون الوسطى.

فهذا المستشرق J.B.TREND «ج.ب. تريند»[1] يذكر في بحث كتبه عن «تأثير الإسلام في التاريخ السياسي والاقتصادي لأسبانيا والبرتغال، أن جوار المسلمين للأمة الأسبانية: «كانت له فائدة واحدة ـ على الأقل ـ وهي أنه أوجد عند الأقليات القليلة الحظ من الثقافة روحا من التسامح ندر وجودها في القرون الوسطى».

ثم يضيف قائلا: «حينما مات الإسلام في الأندلس كان في موته تسميم لأسبانيا».

● فالمسلمون عرفوا التسامح فيما بينهم،وثمّة فِرَق دينية تتناظر، ومدارس فكرية تتنوع اتجاهاتها ورؤيتها العلمية، في مجالات البحث، التي انصبت عليها اهتمامات هذه المدارس، من علوم دينية استقت أصولها من كتاب الله الكريم،

---

(١) تراث الإسلام، مكتبة الآداب، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣م ج١، الفصل الأول، ص٧ ـ ٩ .

وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلوم نحوية وصرفية وبلاغية تأسست لخدمة اللغة العربية التي نزل بها كلام الله المعجز، وتكلم بها أفصح العرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

لقد خلّفت لنا كتب التاريخ والأدب صورا من تلك المناظرات العلمية، التي كانت إثراء للفكر المعرفي عند الفرد المسلم، والوصول به إلى مظان الحقيقة، ولم يكن المسلمون في تناظرهم هذا الذي يدل على ممارستهم لقيمة حرية الكلمة، وترسيخهم لمفهومها ـ لم يكونوا إلا مقتبسين لتلك الصفات السامية، التي توفرت في شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلِّم أصحابه في هدوء، ويتعاطى معهم القول، في رضا، ويشاورهم فيما صعب من الأمر، وكله تطلع في أن يقولوا قولا حسنا يكون فيه الخير للأمة، التي وصفها بأنها خير الأمم.

● لكن المسلمين الذين تناظروا فيما بينهم لم يختصموا اختصام الجهلة، أو يتنابذوا تنابذ المنافقين، وتبادلوا الرأي مع غيرهم من أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى، فلم يضطرهم تبادل الرأي أن يسبوا الآخرين في آلهتهم، أو كتبهم، أو أفكارهم، لأن كتاب الله حدد المنهج العلمي الذي منه ينطلقون، فجعل الكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، من سمات عباده المؤمنين.

أفليس من الغريب أن هذا الدين الذي حرر الفكر الإنساني من قيود القهر والكبت والخوف، ولم يرتض لإنسانية الفرد أن تذعن للظلم البشري، بل عليها أن تقاومه بكل الوسائل والسبل.

هذا الدين الذي نشأت حرية الكلمة في ظلاله، وارتوت من منابع علومه، لم يحم الإسلام كلمته فقط، ولكن حمى كلمة أهل الملل الأخرى، فلم يصلهم منه أذى، فلقد جعل لهم الخيرة في أن يلتزموا بتعاليمهم الدينية، وتقاليدهم الدنيوية، أو أن يدخلوا الإسلام طائعين غير مضطرين، فاستجاب بعضهم، واحتمى بعضهم بما بقي لهم من إرث حضاري، ولم يحرم هذا بعضهم من أن يتخذ مكانه الملائم في المجتمع المسلم، فعرف في الدول الإسلامية ـ على مر العصور ـ وزراء وكتّاب وشعراء لم تكن هويتهم الدينية سببا في أن تتخذ مجتمعاتهم منهم موقفا سلبيا، بل نلاحظ أن الأمر أكثر من ذلك، فهم يحظون

بمكانة رفيعة في فكر أمتهم وأدبها.

● إن موضع الغرابة أن نكون ـ نحن أبناء العروبة ـ أول من يصوّب لهذا الدين ومقدساته سهاما طائشة من القول العابث، الذي يريد أن يخترق كيان الأمة، التي صمدت لكل نزق فكري رماه به أعداؤها من قبل، فارتد عليهم وبال أمره.

بل إن الغرابة تشتد، وعلامات الاستفهام تتوالى يوم نعلم أن تلك السهام النزقة قد احتضنتها مجلة علمية عرفت هيئة تحريرها بالوقار والحكمة، بل لا ننسى أنها تضم بين دفتيها بحوثا أكاديمية بحتة كتبها نخبة من مثقفي الأمة العربية، ممن هم أحرص الناس على تراث الأمة وفكرها ولغتها، وأبعد ما يكونون عن شبهة التعدي والإساءة!.

● إن مجلة «كلمات» التي تتوفر بين طلاب العلم والمعرفة، في هذا البلد وغيره، في هذا الوقت، والتي تصدر عن أسرة الأدباء والكتاب في بلد عربي شقيق، أصدرت عددها الثامن قبل أيام، وقد تشوهت قيمته العلمية ببعض القصائد التي أدرجت تحت «باب شعر» اشتملت بعض مقاطعها على إساءة للإسلام كإقحام بعض الكلمات الدالة على المشاعر والمقدسات الإسلامية، بأسلوب يدل على ذلك الفراغ الديني والفكري الذي تعيش ظلمته نفوس كتّابها.

ولعل هذا الفراغ هو الذي دفع بالشاعر «سيف الرجبي» فيما أسماه بالقصيدة الرابعة من قصائده الستة أن يقارن مقارنة ساقطة بين المكان الذي تتبوأه الشخصيات المريضة التي تدعي ـ عن طريق الخرافة الكاذبة ـ معرفة الغيب، وبين المكان الذي ارتبط منذ بداية الإسلام بعبادة الله، وتزكية النفوس، من كل باطل وضلال.

يقول هذا الشاعر الذي يبدو أنه ـ على أحسن الفروض ـ غير قادر، ذهنيا، على فهم الحكمة من وراء تجمع المسلمين لصلاة الجمعة :

«هل أبحث عن نيران أخرى لحكمة الأجداد».
«وأرحل إلى أسواق بيع المغيّبين»؟.
«أم أرجع إلى مسجد الوادي».
«أحضر قربان الجمعة»[1] .

---

(١) مجلة كلمات، العدد الثامن ١٩٨٧م، ص٢٥ .

لا أظنني بحـاجـة إلى القول: إن الشعـراء والكتـاب الأوروبيين، وحتى الملحـدين منهم يحتفـظون ـ في نفـوسهم ـ باحتـرام وتقـدير لرموز دينهم المسيحي، ولا يجرؤون على تناول مقدساتهم بأسلوب ساخر كهذا، لا نستطيع الوصول إلى رأي ثابت في تفسيره، ولكنه يحق لنا أن نستنكره، ونناقش بواعثه.

أما قصيدة «ايقاعات لـ ٨٦ للشاعر أحمد مدن» فقد ورد في جزء من مقطعها الثامن ما هو أكثر نزقا، وأشد افتراء، وأعظم بلية، ولكنه البلاء أصاب الأمة في فكر أبنائها، فاختاروا له من الأسماء أغربها، **ومن الأشكال أضعفها** :

«نشرد حزن الندى».
«وتغدوا أصابعنا في المدى».
«كاشتعال المطر».
«يدق النصاب».
«ونقتسم البسملة».
«وليس لنا غير أن».
«نحشر «الله» والمقصلة» [(١)].

● إن التـراث الشعـري الخـالد، عند جميع أمم الأرض، لم تخلده أساليب الهـرطقة، ولا عبارات التجرؤ والتطاول على العقائد المنزلة من عند الله، وما يتصل بها من إيمان أو عبادة، بل على العكس من ذلك ـ فلقد كان تطلع الإنسان إلى خالق هذا الكـون، والاستشـراف إلى الآفاق الإيمانية عاملا من عوامل الإبداع، التي تتعانق فيها التجربة الإنسانية مع ذلك الفيض الروحي.

ولقـد استطاعت هذه التجارب أن تحقق الخلود لنفسها وتستأثر بإعجاب أذواق النفـوس البـريئـة من مرض الجحود والصغار. ويظل الشعر يُكتب في الرقاع، ويروى في المجامع، ويستشـهد به العلماء على اختلاف منازعهم، وتباين اهتماماتهم، إلا أنّ ما بقي منه محفورا في ذاكرة الزمن نزر محدود من الملاحم أو القصائد، التي ارتوت من منابع الخلود، ولم تتمرد على الفطرة، التي تجد في

---

(١) المصدر السابق ص٣١ .

الدين حبا يغمر النفوس، وتطهيرا من أدران الحياة، ومنقذا للإنسان مما يتردى فيه من كوارث يقودها إليه تحايل في جلب المصلحة، وأثرة في حب السيطرة، ورغبة في الانتقام ممن يختلف معهم في اتجاه أو سلوك.

وهـذا تيار الشعر الإسلامي مازالت أنغامه تترنم بروائع «محمد إقبال» و «أحمد شوقي» ومازال الأدب الغربي ينظر إلى تجربة JOHN MILTON «جون ملتون» في ملحمته المعروفة PARADISE LOST «الفردوس المفقود»[(١)] أو إلى T.S.-ELIOT «توماس ستيرنز اليوت» في قصيدته المشهورة THE WESTE LAND «الأرض اليباب»[(٢)] ينظر إليها نظرة مثالية يمتزج فيها الإعجاب بالإكبار ففيها من منظورهم الديني ما تتعلق به نفوسهم، وتسبح في عوالمه أرواحهم، إنهم يديرون وجوههم لتراثهم الديني، ويرونه المنقذ لكوارثهم على الرغم مما داخله من أباطيل، وتحكم في منطلقاته من أساطير، ويدير بعضنا ظهره لإشراقة النور، وصفاء العقيدة، ورحابة الأفق العلمي، الذي انفردت به منطلقات ديننا الإسلامي.

● ولا أريـد الوقوف عند قصيدة «سعدي يوسف» التي لا تخلو مقاطعها من تضمين للرموز المسيحية، «كالكنيسة والناقوس»[(٣)]، وهو تضمين تشعر معه احتفاء الشاعر بهذه الرموز، وهذا أكبر رد على الشعراء الآخرين الذين كانت كلماتهم المفتقدة لنبض الشعر، وقوة الصورة، تحمل ـ أيضا ـ نقيصة أخرى لاستهدافها لأثمن ما في حياة هذه الأمة، وهو الدين الإسلامي.

قد أُتهم بأنني متحمس في فكري لكنني سأقول لمن تبعثرت الكلمات بين يديه، وخرج من مجال الإبداع إلى سيئة الابتداع، فذهب يهذي قائلا:

---

(١) THE PEOTICAL WORKS OF JOHN MILTON
JAMESUI BETAND CO. LONDON VOL, 11, P.XXIV

(٢) T.S.ELIOT,
A Study In Character and Style, By Ronald Bush
Oxford University Press 1984, 53

(٣) مجلة كلمات: ص١٢ .

«إنك حين تطرق باب المعنى يفتح لك».
«في اختلاف الحروف قلق وشك».
«بينما الناس يبصرون السماء أرى أن العرش».
«وأهل العرش» [1].

سأقول له :

لقد جفّت الحقيقة لديك أيها الشاعر، قبل أن يجف القلم، الذي ظننت أنك تسطر به شيئا، ولم تدر أنك الذي لم تقل غير قول تنفر منه الأسماع، وتتأذى منه الجوارح !

وأفتونا أيها العارفون من الناس في أمر كهذا ؟ فقد كثر الرديء من القول، الذي يعتقد أصحابه أن الأمم سوف تتسابق على تدوينه، ليكون في إبداعات الخالدين، وما علموا أن الأمم تزدري الذين يبدلون صورهم وأشكالهم، فكيف بالذين يتجرؤون بالقول على عقائدهم وتراثهم ؟!

(١) المصدر السابق: ص٤٨ .

القيادات الغربية واحترام الدين

ذكـر ملحق صحيفـة التـايمز الأدبي قبل شهور عديدة قولة مشهورة عن الرئيس الأمريكي المعروف «إيزنهاور» وهي إن انتماءك للشعب الأمريكي يعني أن تكون فردا متدينا. ولقد تذكرت هذا القول عندما قرأت تصريح الناطق باسم البيت الأبيض «مـارلين فيتـزووتر» إن الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش اتصل هاتفيا عند استنفاد كل الوسائل الممكنة للحل السلمي في منطقة الخليج باثنين من رجال الدين وأبلغهما أنه يصلي من أجل السلام، وإن الرجال الثلاثة صلوا معا. وقد قرأت من قبل وعلى صفحات هذه الجريدة الغراء بقلم الأستاذ الكريم/ محمد صلاح الدين أنه عند تسلم الرئيس بوش لمهام السلطة في بلاده كان أول ما بدأ به حيـاتـه العملية هو التوجه بالدعاء مما يدل على ممارسته لشعائر دينه واحترامه لرموزه ومقدساته.

● والرئيس بوش ليس الوحيد بين زعماء العالم الغربي الذي يكشف سلوكه عن مثـل هذا التوجه فلقد شاهدت في أثناء حرب «الفوكلاند» والتي خرجت منها بريطانيا منتصرة تَرَدُّدَ رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر على الكنيسة، وإعلانها أنها ذاهبة لأداء الصلاة. ولعل البعض في عالمنا العربي تأخذه الدهشة ويتملكه الاستغراب لو عرف أن أحد الأعضاء السابقين لحزب العمال «الاشتراكي» ووزير الخارجية البريطاني في حكومة «جيمس كالاهان» ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩م الدكتـور «ديفيـد أوين» يذكـر في برنـامج تليفزيوني أعد خصيصا عن حياته أنه يذهب بين الحين والآخر إلى الكنيسة متأملا ومتعبدا. ويشبه هذا السلوك الديني الطبيعي الصادر عن هذه الشخصية المعروفة في عالم السياسة والفكر البريطاني سلوك شخصية أخرى كانت تنتمي إلى الحزب نفســه وهـو المتحدث باسم مجلس العموم البريطاني لفترة طويلة وهو جورج تومـاس الذي نقلت صحيفـة «التـايمز» عنه قولا يدعو فيه بني قومه للالتزام

بديانتهم إذا ما أرادوا خيرا وصلاحا لأمور دنياهم وشؤون حياتهم.

● ولقد سُقْتُ هذه الأدلة والشواهد الواضحة ليرى الفرد العربي كيف أن هؤلاء القوم يتشبثون بمنطلقاتهم الدينية ولا يخرجون على المرتكزات الأساسية في تراثهم وأن ممارساتهم الحضارية لم تقف حائلا بينهم وبين العمل على تعميق الحس الديني في نفوسهم والتوجه إلى خالق هذا الكون ومبدعه في أوقات السلم والحرب على حد سواء بينما نجد أن بعضا من أدعياء الفكر والثقافة في عالمنا العربي والإسلامي - وللأسف الشديد - لايزالون يتبجحون بمواقفهم العدائية من الدين وأهله ولا يرون في الحضارة إلا ذلك الخروج المقيت على مقدسات الأمة التي لم ترثها عن جاهلية ولم تأخذها عن مصدر بشري ولكنها تلقتها عن وحي أمين ورسالة صادقة مدعومة بالأدلة والبراهين وإن هذا البعض يخجل من أن يفتتح خطبة أو كتابا له باسم الله والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ويرى في كل عمل إبداعي يتضمن إشارة دينية أو مغزى أخلاقيا يرى فيه تحجراً في الفكر وضيقا في الأفق ويطالب بإحالته إلى منابر الوعظ والإرشاد وذلك عين الجهل المركب والتفكير السقيم فالمطابع في أوروبا لا تزال تقذف بالأعداد الهائلة من الدواوين والروايات التي تحمل توجها دينيا وتهدف لنشر الخير والفضيلة.

● إن الشيوعيين والعلمانيين في عالمنا العربي والإسلامي عقول متحجرة، وقلوب مقفلة، وبصائر ضالة، ولعل خلف هذا التحجر وذلك الصدأ وتلك الضلالة تكمن بواعث تخلفهم عن الركب الحضاري العالمي الذي كان ومازال مرتبطا بالدين أشد الارتباط وساعيا للبحث عن الحقيقة خلف مظاهر هذا الكون ونواميسه.

● إن الأمم لا يعجل في تقدمها الضلال ولا يسعى بها إلى الحضارة التمرد على الفطرة البشرية ولا يعظمها في أعين أعدائها.. تخليها عن تراثها وعاداتها وتقاليدها.

***

لماذا يوجه الإبداع الأدبي ضد الإسلام ؟

● نشـرت صحيفة «الميل البريطانية The Mail on Sunday[1] صورة تجمع بين أعضاء الحكومة البريطانية من حزب المحافظين وحزب العمال «المعارض» وهم يؤدون ما يسمى صلاة الشكر في كنيسة القديسة «مارجريت» بمقر البرلمان الإنجليزي.

وتعتبر هذه الصورة تجسيداً حيا لعواطف المجتمع البريطاني بجميع فئاته تجاه العقيدة المسيحية ووثيقة عملية تبطل ذلك المفهوم الذي انطبع في أذهاننا عن انقطاع الصلة بين الحضارة الغربية وفكرها وآدابها وفنونها وذلك التراث الديني المسيحي المتجذر في نفوس أفراد المجتمع الغربي، وحرصهم على التمثل به، وافتخارهم بالانتماء إليه.

● وإذا كانت هذه العقـائـد المسيحيـة التي امتـدت إليها عوامل التحريف وخالطتها آراء البشر على مر العصور، تلقى من أتباعها هذا الحماس والتبجيل فمـا بال كثيـر ممن ينتسبون إلى عقيدة الإسلام - وخصوصا من المفكرين والأدبـاء - يسيئـون إلى دينهم الذي نشئـوا عليه، ويحاولون جهدهم التعلق بالعقائد التي نبذها أهلها، وأجمع روادها على فساد أسسـها وتطبيقاتها.

● لقد أذهلتني تلك الحملة الشعواء التي تزعم كبرها بعض مفكري وأدباء العالم العربي ضد الدين الإسلام وشعائره وتراثه، وبدت واضحة في الوثيقة التي تولى نشرها كاتبان غربيان، هما «لوك باربولسكو» و «فيليب كاردينال» تحت عنوان «رأيهم في الإسلام»[2] حوار صريح مع أربعة وعشرين أديبا عربيا، في هذه

---

(١) The Mail on Sunday, March, 4, 1990, P.9

(٢) صدر الكتاب باللغة الفرنسية باسم L'islam En Questions ونشرته دار الساقي في لندن، سنة ١٩٨٧م، وهي الدار التي يمارس من خلالها «أدونيس» كثيرا من السلطة والتأثير، فيما تنشره من دراسات وتعقده من ندوات.

الوثيقة التي تبرز صورة هؤلاء الأدعياء على حقيقتهم رغم محاولات وسائل الإعلام العربي في تقديم إنتاجهم لنا ضمن مذاهب أدبية معينة كالتجديد والحداثة.

هذه الوثيقة تحمل لنا إجابة كاتب مثل «جمال الغيطاني» الذي قال عندما وجه إليه سؤال عن «إمكانية اعتماد الإسلام من قبل دولة عصرية كنظام للحكم بأنه ـ أي الكاتب ـ «يدعو للدولة العلمانية التي تبدو أكثر ملاءمة لإدارة مجتمع عصري، بينما يعنى الإسلام بعلاقات الفرد مع ربه ومع الغير».

ويفتخر الروائي المعروف «طاهر وطار» بإيمانه بالمبدأ الشيوعي القائل إن الدين أفيون الشعوب، كما يحاول الإشادة بالتوجهات العربية المستحدثة نحو أفكار ماركس ولينين.

أما الشاعر «عبدالوهاب البياتي» فيؤكد أنه ليس للدين انتماء قومي أو جغرافي فهو جزء من الثقافة العالمية وتراث قائم بذاته، وبهذا يعبر شاعرنا الذي تلتهب الأكف من التصفيق له في منتديات الشعر عن إيمانه بما يسمى بوحدة الأديان، ولم يعد خافيا أن هذه العقيدة نبتت في أحضان المعابد اليهودية، وتسعى الحركة الصهيونية لتثبيت منطلقاتها في المجتمعات الإسلامية.

وهذه الوثيقة لا تخلو من بعض المفارقات العجيبة فإجابة الكاتب «عبدالرحمن المنيف»[1] ترى إمكانية مشاركة الدين في إعادة بناء وتنظيم المجتمع بشرط الاستناد إلى ركائز علمانية[2]، وهو خلط واضح يدل على تجاهل صاحبه بمنطلقات الدين الإسلامي كعقيدة ربانية ونظام كامل للحياة الإنسانية

---

(١) مؤلف رواية «مدن الملح» التي صدرت في جزأين كما أن له جهودا روائية أخرى مشتركة مع جبرا إبراهيم جبرا.

(٢) هذا الرأي لا يذهب بعيدا عن الدعوة التي يحمل لواءها محمد أركون والتي تتضح أسسها وأبعادها في مقولته التي صرح بها في ندوة جمعية الصداقة الفرنسية ـ العربية ـ حيث قال: «فالعرب يمكنهم أن يفيدوا كثيرا من فرنسا، ومن التيارات الفكرية التحريرية والجادة في الثقافة الفرنسية وهنا أشير على وجه الخصوص، إلى مسألة العلمنة المعاشة في فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩م، ويمكن أن ينتهز العرب الفرصة لحل أكبر مشكلة مطروحة على المجتمعات العربية والإسلامية، وهم يحلونها عن طريق توليد فكر تحريري وتنويري داخل الإسلام والثقافة العربية، وهذا الفكر غير موجود للأسف الشديد، حتى اليوم. انظر: مجلة الأزمنة (فبراير) ١٩٨٩م، المجلد الثالث، العدد ١٤، ص٧٥ ـ ٧٧ .

لا يمكن خضوعه بأي حال من الأحوال للآراء البشرية المحدودة بعاملي المكان والزمان والتي تتحكم فيها ـ أيضا ـ النزعات والأهواء المختلفة.

وإذا كنا لا نستغرب من مبشّر[1] يحاول البروز في مسوح الأدب، وصليبي يتقنــع بأردية الفكر العالمي والثقافة الإنسانية محاولته إلصاق التهم الباطلة بالدين الإســلامي[2] والتشكيـك في علمـائـه ومفكريه[3]، وإنكاره على اللغة العربية وحدتها القدسية، كما أكد ذلك في كتابه «مقدمة في فقه اللغة العربية»[4].

وإذا كانت لا تدهشنــا ـ أيضــا ـ تلك العبارات المجردة من أدنى حدود المعرفة واللياقة التي كان يستخدمها الهالك ـ كاتب ياسين ـ عند حديثه عن الإسـلام وشعائره، أو عند مناقشته لقضية التعريب[5] في بلد عربي كالجزائر، والتي ظل يحـاربها لآخر أيام حياته، إلا أنه لأمر غريب وقضية مستنكرة أن

---

(١) يشيـر العـلامــة الشيخ (محمود محمد شاكر) إلى الدور المشبوه الذي قام به لويس عوض منذ سنة ١٩٥٤م، بقوله: «إنه عرف بدعوته للأدب العامي في صدر حياته، ورأيته منذ دخل صحيفة الأهرام يجمع حول نفسه، وتجمع له بعض المراكز الثقافية القائمة في مصر والتابعة مباشرة لمراكز التبشير العالمي، من يصلح أن يكون معبرا عن رأي لويس عوض، ويكون متسما بالنزاهة ولا مطعن في نزاهته من المصريين المسلمين الذين خدعوا بشكل ما، بما يسمى كسر عمود الشعر العربي، وباستعمال اللغة العامية والدعوة إلى إحـلالهـا محل الفصحى ثم من يجتمع حوله ممن يحقر شأن العرب وتاريخهم، وثقافتهم ودينهم، ويزدري بكل ذلك ازدراء ظاهرا، ويعد الثقافات الأوروبية كلها هي المصدر الذي ينبغي أن نستقي منه مادة تكويننا الحديث بلا تردد أو تمحيص «انظر: محمود محمد شاكر» أباطيل وسمار، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م، ص١٤٨ .

(٢) يذكر لويس عوض في كتابه الأخير الذي دون فيه مذكراته الشخصية «أوراق العمر، سنوات التكوين» ما يدل على استهتـاره بالأديان، ونفوره من شعائرها، ويربط بين هذا المنحى في شخصيته وبين تكوينه الأسري المبكر، يقول في ذلك: «وكنا في بيتنا لا نتكلم أبدا في موضوع الصوم والصلاة، بل كنا نعدها قلة أدب أو قلة ذوق» انظر: لويس عوض ٧٥ عاما، حياة أرهقت صاحبها «مجلة المصور المصرية، العدد: ٣٤١٢ ـ ٥ شعبان ١٤١٠هـ، ص٢٢ ـ ٢٥ .

(٣) يصف الكاتب التوجهات الإسلامية عند كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، بهذه العبارات الباطلة: «فبالنسبة لجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده كانت الديانة بمثابة سلاح يشهر للدفاع عن النفس» انظر «رأيهم في الإسلام»، ص١١١ .

(٤) جرت مصادرة هذا الكتاب، بناء على طلب من مجمع البحوث الإسلامية في سنة ١٩٨٠م.

(٥) اجرت مجلة الشراع اللبنانية حوارا مع كاتب ياسين قبل وفاته صرح فيه بأنه ليس عربيا ولا مسلما، وإنما جزائري، وإن اللغة الأولى للشعب الجزائري لم تكن العربية بل «التامازيت» ومطالبا بالكف عن التعريب، وأن يتعلم جميع الأطفال، منذ الحضانة لغتهم التي هي التامازيت. انظر: «كاتب ياسين في آخر حديث له «مجلة الشراع، العدد رقم ٣٩٨، الاثنين، ٩ نوفمبر ١٩٨٩م، ص٥٦ ـ ٥٧ .

نسمع هذا الهذيان من كاتب يعتبر والده أحد الدعاة المخلصين للإسلام، والمحافظة على التراث العربي تاريخا وفكرا وأدبا، وزعيما من الزعماء المعروفين بانتمائهم الوطني الخالص.

إن الكاتب «حسن أحمد أمين» يرى أن المخرج الوحيد للعالم الإسلامي هو الانتماء للمحور الشيوعي، فخضوع هذا العالم لهذا المحور جدير باكسابه وجودا فعالا في الميدان العالمي، وإن يكن رأيه هذا ليس كل ما تحمله عقليته من سخافات [١]، وما تدعو إليه مؤلفاته من انحرافات، فهو مثلا يرى أن أحكام الشريعة الإسلامية تنتفي عنها صفة الألوهية، وتندرج ضمن التطور التاريخي للتقاليد والعادات الاجتماعية، وهو يشبه المؤسسات الدينية القائمة في بعض البلاد الإسلامية بالتنظيم الكنائسي، ويعقد مقارنات ساقطة بين العلماء والكهنة المسيحيين.

● إن العالم الذي يشهد في هذه الحقبة سقوط معاقل الشيوعية، وانحسار موجة أفكارها، في بيئتها الطبيعية ومنتدياتها الحقيقية، سوف يعجب كل العجب من هذا الجهل الفاضح، والخواء الفكري والتبعية الممقوتة، المتمثلة في آراء هذه الثلة التي تعتبر نفسها مسؤولة عن توجيه الفكر والأدب في بلادها.

---

(١) يذكر الدكتور «إحسان عباس» أن المرحوم احمد امين كان يملي عليه رسالة لابنه الذي كان يدرس في أوروبا، ينصحه فيها بالاستمساك بعروة الخلق الشرقي، إلا أنه توقف عن الإملاء بعد أن اكتشف مضمون رسالة تتعلق بسلوك ابنه هذا الذي كان يوجه دوما إليه الرسائل الناصحة. انظر: الدكتور إحسان عباس «من الذي سرق النار» خطرات في النقد والأدب، جمع وتقديم الدكتورة وداد القاضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

الإبداع ليس حرية مطلقة

تُطرح في الساحة الثقافية في الوقت الحاضر قضية هامة وهي: هل من حق المؤسسات الدينية ـ الأزهر مثلا ـ أن تمنع طباعة أو نشر بعض الكتب التي يكون فيها مساس بالمشاعر الدينية كالانتقاص من حق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو التشكيك في الوحي الإلهي أو التعرض لأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما لا يتفق مع منزلتهم ومكانتهم التي لا تقبل الشك أو التأويل ؟ فلقد تناقلت الأخبار عن صدور روايات أدبية وقصائد شعرية تتخذ من الرمز وسيلة للطعن في الإسلام ومقدساته وشعائره. وعندما قامت المؤسسات المعنيـة بالعمل على منع مثل هذه الأعمال وجدنا أصواتا كثيرة تنادي بعدم المســاس بحرية الرأي وترك القاص أو الشاعر يقول ما يريد فالإبداع شيء والدين شيء آخـر حسب تعبيـرهم، لأن الإبـداع يجب ألا يخضع للضوابط الدينية والأخلاقية.

وهذه مقولة فاسدة تعبر عن جهل أصحابها بمفهوم الكلمة ودورها. فالكلمة التي شرف الله الإنسان بحمل أمانتها لا يمكن أن تسير في طريق معاكس للحق، والجمال لا يمكن بلوغه عن طريق ما يعد تحديا للقوانين الإلهية التي أراد الله لها أن تسود هذا الكون وتعمل على نشر الفضيلة فيه والحيلولة دون تفشي الفساد والرذيلة. وإضافة إلى هذا الدور الهابط الذي يريده البعض للكلمة أن تؤديه فينزلونها من منزلتها السامقة، ويسلبونها بهاءها الحقيقي ويشوهون صورتها الأزلية بالزيف والكذب والخداع، فإنهم ـ أيضا ـ يجهلون مفاهيم الحرية التي يريـدونها بلا ضوابط ويحصرون مهمة الإبداع في تصوير اللحظات الهابطة للنفس، ويتصورون ـ وهما وخداعا ـ أن الفكر الأوروبي يؤمن بمثل هذه الحرية ويدعو إليها فما الذي يمنع من الاقتداء بالغرب والسير خلفه في هذه القضية، ومــع أن القـائلين بهـذا يجهلون مسلّمـة هامـة وهي أن لكل مجتمع ظروفه

الحضارية والاجتماعية الخاصة به وبالتالي فلا مجال لقياس مجتمعاتنا على المجتمعات الغربية فهو شيء يرفضه المنطق ولا يقبل به العقل الواعي والمدرك للسياقات الحضارية الخاصة بكل أمة، مع هذا الذي ذكرناه فالفكر الأوروبي لا يؤمن بحرية مطلقة في الإبداع، ففي بريطانيا مثلا يحرم التجديف ضد الديانة المسيحية، ولا يمكن لعمل كتابي أو تليفزيوني أن يتعرض لما يدخل في نطاق الإساءة للمشاعر الدينية للمجتمع وإذا ثبت ذلك فالعمل عندئذ لا تتم إجازته ويتعرض صاحبه للعقوبة بل إن التعرض للشخصيات التاريخية والرموز الاجتماعية يمكن أن يؤدي لسقوط صحيفة أو مجلة أو القائمين عليها، كما حدث عندما تعرضت مجلة يصدرها التجمع الشبابي في حزب المحافظين لشخصية رئيس الوزراء السابق ـ هارولد مكميلان ـ فأسرعت سكرتيرية الحزب لإصدار أمر من المحكمة بالتخلص من أعداد المجلة التي تتضمن الإساءة لهذه الشخصية السياسية، كما أدّت هذه الحادثة إلى استقالة المشرف على تحرير المجلة.

وعلى الرغم من رفع شعار العلمانية في بعض البلدان إلا أنه يحرم التعرض لشخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويؤدي هذا الفعل المشين إلى العقاب كما ينص على ذلك القانون في بلد كتركيا مثلا، وإذا كان هذا هو الوضع في بعض البلاد الغربية أو البلاد الإسلامية التي تأخذ بالقانون الغربي في حياتها، فكيف يمكن أن نتصور أن أديبا يدفعه خياله المريض للانتقاص من شخصية الرسول الأعظم ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أو شاعرا يدفعه غروره للاستهزاء بآيات الله الكريم والمنزهة عن كل تحريف، ثم نجد من يدافع عن مثل هذه الأعمال الساقطة بحجة الإبداع وتحت قناع الحرية المزيفة.

إن الحرية لم تكن في يوم من الأيام دعوة إلى الباطل، بل كانت على العكس من ذلك المفهوم الموجود في أذهان البعض، دافعا للكلمة الطيبة ورادعا عن الكلمة الخبيثة، فالحرية تحمي العقول والقلوب مما يفسد طبيعتها أو يخرجها عن فطرتها، كما أن الإبداع لا يمكن حصره في قضية واحدة وهو الاهتمام بلحظات الضعف عند الإنسان، وتاريخ الفكر العالمي يحمل لنا أدلة كثيرة على

أن الإبداع الذي استطاع أن يثبت وجوده في كل الحقب والعصور هو ما كان هدفه الارتقاء بالروح والسمو بالمشاعر والارتفاع إلى آفاق الحق والفضيلة، وما سواه فهو إبداع لا يتجاوز دائرته الضيقة التي أبدع فيها ولا يتذوقه إلا أصحاب النفوس السقيمة والعقول المتخبطة، فاللهم اهدنا إلى الحق وجنبنا ما يغضبك ويسخطك.

* * *

يســاري ويســاريـون

● «إريك هيفر» Eric Heffer مفكر إنجليزي وأحد الأصوات المعروفة في مجلس العموم ويميل إلى التوجه اليساري في حزب العمال البريطاني، توفي قبل مدة وجيزة بعد معاناة مريرة مع داء عضال استمرت لمدة تزيد عن عام ونصف، ولقد وجدت في مواقف هذا المفكر ما يمكن الإشارة إليه لنستطيع التمييز بين جوانب الفكـر الغـربي وأولئـك الذين يندسون في صفوف المثقفين العرب، ويدّعون التقدمية ويكذبون على مجتمعاتهم بأنهم في تقدميتهم هذه إنما يستندون إلى أسس الفكر الغربي ويحاولون الاستفادة من معطياته، مع أننا عند دراستنا لهـذه النخبة العربية نجدها بمواقفها تجسد خذلانا حقيقيا للقيم الإسلامية والعربية من جهة، وإخفاقا في فهم وإدراك الفكر الآخر، فضلا عن تمثل حقيقي له واستيعاب لأبعاده.

المفكر «هيفر» رغم اقتران اسمه بالنخبة اليسارية في الساحتين الفكرية والسياسية، إلا أن هذا الاقتران لم يفقده ارتباطه بالكنيسة الإنجليزية، وذلك يعـود لنشأته في أحضان التعاليم المسيحية حيث كان يتردد على الكنيسة حوالي ثلاث مرات في يوم الأحد المخصص لتلقي هذه التعاليم، ولقد أدى به هذا الارتباط إلى تأليف كتاب عن المسيحية وهو واحد من أربعة كتب أنجزها في الفترة التي كان يصارع فيها المرض، وتأليفه لهذا الكتاب عن ديانته جعل صحيفة التايمز اللندنية تطلق عليه صفة «شديد التمسك بالتعاليم الإنجليكانية . High Anglican

ولعل هذا التمسك يبدو ـ أيضا ـ في تطلعه إلى النموذج المسيحي المتمثل في الربط بين حرفته الأصلية وهي النجارة وما كان يشتغل به الأنبياء والرسل من حِرَف.

وهو مع يساريته التي لازمته طوال حياته التي قاربت سبعين عاما، كان أول

مفكر وسياسي إنجليزي يرفع صوته في مجلس العموم ليدين الغزو السوفييتي لأفغانستان في وقت كانت فيه النخبة البريطانية المحافظة لا تجرؤ على هذه الإدانة، كما كان أول معضد لحركة «تضامن» البولندية والتي سجلت في بداية الثمانينات الميلادية المشاهد الأولى في صراع دول أوروبا الشرقية مع الحركة الماركسية ورموزها المتهالكة، كما كان عدوا معروفا للنزعة التسلطية والمركزية الحزبية التي كان يمثلها الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، ولهذا طالب بحرية الفرد والإصلاح، في الوقت الذي لم يكن يتصور أحد أن زعيما اسمه «جورباتشوف» سوف يبرز من بين أعضاء الكرملين لينادي إلى ما يسمى «بالبروسترويكا» وعندما تألب اللوبي الصهيوني على بريطانيا لينال من الأميرة «مايكل» أميرة كينت، كان «هيفر» يمثل الصوت الوحيد الذي يطالب بوقف تلك الحملة القذرة التي شنتها مجموعة صحف الناشرين اليهوديين «روبرت ماكسويل» و «روبرت مردوخ» متعللة بجذور الأميرة الألمانية وديانتها الكاثوليكية التي ترفض الاعتراف بالقدس كعاصمة موحدة لإسرائيل.

وعندما حال المرض بينه وبين حضور جلسات مجلس العموم ثم حضر فجأة في الجلسة التي خصصت لمناقشة حرب الخليج في شهر يناير لعام ١٩٩١م قابله أعضاء المجلس على اختلاف توجهاتهم بالتصفيق، وقام رئيس الوزراء البريطاني المحافظ الذي لم يمض على وجوده في «داوننغ ستريت» سوى مدة وجيزة، قام من مكانه مخترقا الصفوف وانحنى مسلما على واحد من أكثر الأصوات حدة في انتقاد الحزب الحاكم والحزب المعارض الذي ينتمي إليه هو نفسه، وكان «ميجور» بهذا الصنيع يجسد تقليدا رائعا تعلمه الغرب من حضارتنا الإسلامية العريقة وهو احترام الخصوم وتقدير أصحاب الفكر الآخر دون أن يعني ذلك تسليما بما يقولون أو تنازلا عن المنطلقات والأسس.

إنني لم أقدم هذا القدر من سيرة هذا المفكر إلا ليتسنى للقارىء الموازنة بين مواقفه الصريحة والواضحة ومواقف النخبة اليسارية في العالم العربي التي لا تصر فقط على عدم انتقاد الفكر الشيوعي وكأنه شيء مقدس لا يجوز المساس به، ولكنها تتمادى في غيها إلى درجة معاداة وخصومة الذين يقدمون على مثل هذا الانتقاد، وهي النخبة نفسها التي تطلق على مجاهدي أفغانستان

المسلمـة اسم العنـاصـر الثورية المتمردة في صحفها ومنابرها الإعلامية، ورفضت وترفض حتى اليوم إدانة الوجود الشيوعي على هذه الأرض المسلمة وإذا كان بعض مفكـري أوروبـا الذين نلمس في حياتهم ميولا محددة تجاه التـوجـه اليسـاري لا يرضـون أن يكـون هذا التوجه على حساب عقائدهم المسيحية الراسخة في نفوسهم، فإن كثيرا من مثقفي العالم العربي ـ وهو أمر مؤسف ومحـزن ـ يخجلون من الانتماء لهذا الدين العظيم أو الإشادة بنبيه الخـاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعدون ذلك تأخرا ورجعية، بل إن بعضـهم يتطاول في وقاحة وخسّة على مقامه السامي وشخصيته العظيمة، ولو كان لهؤلاء الذين نطلق عليهم في عالمنا العربي ـ النخبة المثقفة ـ قلوب يعون بها وضمائر يرجعون إليها لما احتجنا إلى أن ندلل لهم على فساد تصوراتهم بنماذج وأمثلة من الفكر الآخر، ولكن الذي قادنا إلى ذلك شدة انبهارهم بالفكر الغربي وتعلقهم بتقاليده ورموزه، ولكنه للأسف الانبهار الذي لا يتجاوز النظرة الأولى، والتعلق الذي لا يُعمل أدوات الفكر ولا ينزع إلى معرفة عميقة بمصادر العلم لدى الأمم الأخـرى، وهو أمر يضعنا أمام سؤال هام: ألسنا بحاجة إلى عقول ناضجة وأقلام مؤمنة بدينها أمينة على تراثها لتوقفنا على حقائق الفكر الأوروبي لنميز غثه من ثمينه ونعرف سيئه من صالحه ؟.

* * *

لويس عوض

كانت كلمات الأستاذ الفاضل محمد صلاح الدين على صفحات جريدة المدينة الغراء في يوم الثلاثاء ٦/٣/١٤١١هـ في موضوع تسابق بعض الصحف العربية في الثناء على كاتب عاش طوال حياته مناوئا للدين الإسلامي. واللغة العربية وآدابها، ورواد الكلمة في تاريخها الحضاري الطويل، وهو الدكتور «لويس عوض» ـ كانت كلمات تحمل الدعوة إلى الاستناد إلى الحقائق الموضوعية في معالجة القضايا المتصلة ببعض الكتاب الذين عاشوا في ظل المجتمعات الإسلامية بما تمثله من تسامح وإنصاف، ولكنهم استغلوا هذه القيم الإنسانية الرفيعة في مهاجمة الأمة الإسلامية من خلال التشكيك في إرثها العلمي، ومساهماتها الحضارية.

● يحاول البعض أن يعقد مقارنة غير متكافئة بين «لويس عوض» والعقاد، وطه حسين، بحجة أنهم جميعا من دعاة التنوير، إلا أنه بقليل من البحث العلمي المتجرد يمكننا القول إن «عوض» لا يمكن تصنيفه مع أديبين كبيرين كالعقاد، وطه حسين، فالأول لم يكن في يوم من الأيام معاديا للعروبة، كما أن كتاباته تحمل تصورا إسلاميا واضحا، بل وتنطلق من هذا التصور في نقض الكثير من الآراء الخاطئة عن الدين الإسلامي، وحياة عظمائه، كما أن طه حسين على الرغم من انبهاره بالحضارة الغربية في مطلع حياته والذي يحسن تفسيره في ضوء مكونات طه حسين العاطفية إلا أنه ساهم في الرقي بالأدب العربي من خلال عشقه للغة القرآن وتجنبه لجميع الدعوات المشبوهة التي تسعى للتقليل من شأنها أو تغيير بنيتها، أو إحلال العامية بدلا منها، بينما نجد « عوض» يختم حياته الفكرية بعمل يكرس فيه كل قواه للهجوم على اللغة العربية، وهو كتاب «مقدمة في فقه اللغة العربية» والذي صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م، ثم صودر بناء على طلب من مجمع البحوث الإسلامية وهذا العمل الذي يثبت إصرار عوض على المجاهرة بالعداء والتصدي لدراسة الفكر العربي

من خلفية حاقدة يصعب تفسيرها بالنموذج المحلي الذي دعا إليه فاروق رزق في صحيفة الحياة بتاريخ ٣٠ صفر ١٤١١هـ ويضع رأي جابر عصفور والمنشور في مجلة «الهلال» والذي حاول من خلاله أن يجعل من كتاباته «عوض» تكريسا لمفهوم العروبة الصادقة، يضعه في موقف النقيض من «عوض» نفسه، وليس من أولئك الذين تصدوا لنقد أعماله التي يسيطر عليها توجه واضح نحو الافتخار بالفرعونية وإحلالها محل العربية وهي السمة الأساسية للمجتمع المصري العظيم.

تبقى مسألة هامة وهي أن «عوض» لم يكن فقط ينعي على المجتمع المصري تعلقه بالدين وتطبيقه لشعائره وذلك من خلال تأكيده على إبراز النقيض لذلك والمتمثل في صور من تكوينه الأسري الخاص حيث ذكر في كتابه الأخير «أوراق العمر ـ سنوات التكوين» «وكنا في بيتنا لا نتكلم أبدا في موضوع الصوم والصلام بل كنا نعدها قلة أدب أو قلة ذوق» بل ذهب إلى مهاجمة بعض الأدباء الغربيين المتمسكين بعقائدهم الدينية تمسكا صارما في حياتهم الخاصة والمبشرين بها أيضا من خلال إبداعاتهم الأدبية، وكان من بين هؤلاء، ت.س. إليوت، صاحب القصيدة الذائعة الصيت «الأرض اليباب».

لقد أخفق «عوض» رغم تنقله بين المجتمعين الإنجليزي والأمريكي لفترة من الزمن ـ أثناء دراسته العليا ـ كما أخفقت زمرة أخرى من الدارسين العرب، في الإحاطة بقضية هامة وجديرة بالمتابعة والدراسة وهي أن الأدباء الغربيين ينزلون أديانهم منزلة رفيعة، ولا يرضون بأن تكون محتوياتها ـ على الرغم من تعرضها للتغيير والتبديل على مر العصور ـ هدفا رخيصا يكرسون له مواهبهم الأدبية وأدواتهم الفنية.

إن نظرة متعمقة إلى إبداعات دانتي، وملتون، وجيفري تشوسر، وفرانز كافكا، وعزرا باوند، وإليوت تجعلنا أكثر إيمانا بأن مفاهيم العلمانية وما يرتبط بها من دعوات وأفكار، لم تتلقها الأوسط الثقافية الغربية بذلك الانبهار والاندهاش الذي أصبح ـ وللأسف الشديد ـ سمة من سمات بعض الشخصيات الأدبية العربية التي تسنمت في غفلة من الوعي وفقدان التقييم منابر الكلمة ومواقع التأثير.

الباب الرابع

نحن والاستلاب الثقافي

اليساريون العرب والتاريخ الأسود

● قد يخلط البعض بين مواقف العمَّاليين أو اليساريين الغربيين ومواقف الزمرة الماركسية أو اليسارية في العالم العربي، فاليسار الغربي الذي عبّر عن موقفه المعارض للحرب في الخليج لم يفعل ذلك لأنه متعاطف مع الديكتاتورية العراقية أو مقر لاحتلالها غير المشروع لأرض الكويت، ولكن لأنه يرفض نمط الحرب ومبدأ القتال كما ظهر ذلك في موقف اليساريين الغربيين من الحرب العالمية الأولى التي عارضوها في البداية ولكن سرعان ما اقتحموا ميدانها، وهو سلوك يدل على التناقض الذي كانت ومازالت تعيشه الحركات اليسارية في الغرب، ولكن على الرغم من موقفهم من الحرب الأخيرة التي خوّل مجلس الأمن الدول المعنية بالإقدام عليها بعد استنفاذ كل الوسائل السلمية الممكنة، إلا أنهم - أي اليساريين الغربيين - يرفضون الغزو العراقي ويدينونه، وهذا ما عبَّر عنه النائب العمالي البريطاني المستقيل ووزير الظل للضمان الاجتماعي «توني بانكس» والذي وصف صداما بأشنع العبارات قائلا: «هذا هو المخلوق المسخ الذي يجر شعبه إلى الدمار الشامل» ولم يكن «توني بين» وزير الطاقة السابق في حكومة ويلسون العمّالية والسياسي البريطاني الشهير المعروف بمواقفه المتميزة في مجلس العموم هو الآخر مقرا للأسلوب البربري الذي انتهجته القيادة العراقية في تعاملها مع جارتها المسالمة دولة الكويت.

هذا هو موقف اليسار الغربي وهو يختلف عن الموقف الذي عبر عنه الشيوعيون واليساريون العرب والذين رفضوا الحرب من منطلق إقرارهم للغزو العراقي وتأكيدهم على الدعاوى الباطلة التي يرفع شعارها هذا النظام الأهوج ويستخدمها ذريعة يتستر من ورائها على جرائمه وانتهاكاته ويرى هؤلاء اليساريون العرب في شخصية صدام صورة البطل القومي والزعيم المنقذ وما ذلك إلا لأنهم يعشقون الظلم، ويؤمنون بالديكتاتورية، ويتلذذون برؤية تطاير

الرؤوس بغير حق وسفك الدماء التي تروي عند أصحابها نزعات الإثم وشهوات الباطل.

● اليســاريون العرب الذين ينادون بالوطنية ويعتقدون في دعاوى صدام الكاذبة بتحرير الأرض الفلسطينية المغتصبة هم أول من خان هذه القضية وخذل أهلها بعد قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م ومن يرجع إلى رسائل الشاعر العراقي بدر شاكر السياب الذي عُرف بانضمامه إلى الحزب الشيـوعي العـراقي في بداية حياته ثم انفصاله عنه سوف يذهل من تواطؤ الحركات اليسارية في العالم العربي مع الحركة الصهيونية، بل إن السياب يعبر في إحدى رسائله عن ضرورة اتخاذ موقف حازم تجاه زميله في المسيرة الأدبية ورفيقـه في الحـزب «عبدالوهاب البياتي» لأن هذا الأخير ذهب في طروحاته الشيوعية وما يترتب عليها من مواقف مذهبا غريبا يدل على تخلِّيه عن كل حسٍ وطني وتجرده من كل قيمة إنسانية.

● اليساريون العرب وفي مقدمتهم النظام العراقي ومنظمة التحرير الفلسطينية كانوا أول من أقر بالاحتلال الشيوعي للأرض الأفغانية المسلمة ووقفوا مواقف عدائيـة من الجهـاد الأفغاني لتحرير أرضه المسلوبة وقيام الدولة الأفغانية المسلمة، على الرغم من أن معظم الأحزاب الشيوعية في العالم الغربي ومنها أحزاب بريطانيا وفرنسا نددت في ذلك الوقت بهذا الاحتلال وشجبته وهذا في حد ذاتـه يكفي لتحـديـد مسار العقلية الاستلابية التي يفكر بها اليساريون العرب، والتبعية المطلقة والعمياء التي ينتهجونها في التعامل مع الأحداث والتي تدل على تخلفهم وانحطاطهم الفكري.

● واليساريون العرب رأوا في نبذ دول أوروبا الشرقية للنظام الشيوعي وفي إصلاحات جورباتشوف السياسية، رأوا فيهما خيانة للمبادىء وهرطقة فكرية يجب أن تُصَد وتُقَاوم، ومن يريد التأكد من ذلك فليرجع إلى مقالات غالي شكري، وخطب لطفي الخولي، وأشعار محمود درويش، والبياتي، والمقالح، وتنظيرات محمد عابد الجابري.

● ليس بغريب على اليسار العربي وفيهم النخبة التي تتطلع ـ للأسف الشديد

ـ بعض الدوائر الثقافية في العالم العربي إليها على أنها النخبة المنتقاة والتي يجب أن تمنح امتيازاً لتقود عالمنا إلى حيث مرابع الحرية والعدالة والفضيلة، ليس بغريب بعد هذا التاريخ الأسود، والمواقف المخذولة، والتوجهات الخائنة أن يرى هؤلاء في احتلال الكويت شرعية، وفي سرقة الأموال شرفا وفي انتهاك الأعراض فضيلة، وفي التخريب والهدم والحرق حضارة فكل إناء بما فيه ينضح.

* * *

الديالكتيك المتداعي وآثاره

في فــكر محــــمد أركــون

جاء زمن كنا نشكو فيه من الاستشراق وظلمه المتمثل في تلك التصورات الخاطئة عن الإسلام، وحضارته، وتاريخه، ومع هذا فلقد وجد بين هؤلاء المستشرقين من كان منصفا في تقييمه للحضارة الإسلامية، عادلا عند تعرضه لتلك الإنجازات التي قام بها علماء الإسلام في مختلف ميادين المعرفة. ولكننا بلينا في عصرنا الحاضر بأقوام من بني جلدتنا ينصبون أنفسهم للحديث عن الفكر الإسلامي في جامعات الغرب ومنتدياته، وليس لهم من هدف إلا التقليل من معطيات الحضارة الإسلامية، وبصورة أكثر سوءا وسلبية من المحاولات الاستشراقية التي عرف المسلمون بواعثها الحقيقية وعملوا على تعريتها وتفنيدها، محمد أركون واحد من هؤلاء الذي يتحدث يوما بصوت السياسي، ويجادل يوما آخر بصفة المفكر، ولا يتورع من أن يضع نفسه موضع الفقيه الذي يرجع إليه الناس طالبين رأيه فيما يعترض حياتهم من مشكلات وقضايا، وهو شيء لم يسمع الناس به من قبل ولو تحدث إليهم أحد بهذا الأمر لعدوا ذلك ضربا من الأسطورة أو الخيال اللذين يرفضهما الواقع رفضا باتا ولا يمكن لمقتضيات العقل وحيثيات المنطق أن تتعامل معهما بتلك الجدية التي يمكنها أن تتعامل بها مع حقائق الأشياء والمستندة إلى الضوابط التي لا يختلف الناس حولها مهما تنوعت آراؤهم واختلفت توجهاتهم الفكرية.

● لقد كان آخر ما تمخض عنه فكر «أركون» الذي لا يترك مناسبة دون أن يؤكد فيها على عروبته وإسلامه، ولا نعرف أي نوع من أنواع العروبة يقصد، أما الإسلام فإن ما يدعو إليه أركون بين الفينة والأخرى من مقولات يتعارض كليا مع حقائق هذا الدين وشريعته الخالدة ـ نعم كان آخر ما تمخض عنه هذا الفكر السقيم هو تلك المقولة الفاسدة التي تضمنها موضوعه المنشور في صحيفة

البيان المغربية، وعلق عليها ملحق الفكر الإسلامي بصحيفة العلم «أركون بين الفتنة والجنون، بقلم فريد بن عدي» العدد ٢٣٤١ محرم ١٤١٢هـ ولقد قال أركون: إن «التراث العربي الإسلامي أسطورة» وليس محتوى علميا.

● إن أركون الذي يحاضر في بعض جامعات الغرب يمكنه الرجوع إلى ما كتبه بعض مفكري الغرب وعلمائه عن دور التراث الإسلامي في مسيرة الحضارة الإنسانية ولولا هذا التراث لتوقفت هذه المسيرة ولم يتمكن إنسان هذا العصر من الاستفادة من المعطيات الحضارية المتعددة، بل إن كبرى جامعات الغرب تحتفي بين الحين والآخر بذكرى علماء الحضارة الإسلامية من أمثال «ابن سينا والفارابي والرازي وابن خلدون والإمام أبي حامد الغزالي وابن رشد» وغيرهم ممن لا تخفى أسماؤهم على أركون الذي يتخبط في آرائه والتي يعتبر من العبث الوقوف عندها، أو محاورته حولها، ولكن افتتان البعض من أبناء الأمتين الإسلامية والعربية بآرائه الشاذة دفعنا إلى الإشارة إلى مثل هذا الفكر الذي لا يحتوي حقيقة على ما يمكن أن يطلق عليه مسمى فكر أو ثقافة، ولابد أيضا من فهم السياق الفكري الذي تصدر عنه مثل هذه المقولات، فهذا السياق العام يرتكز بصورة رئيسة على الفكر الماركسي الذي مازال أركون مفتونا به ومشدودا إلى مرتكزاته التي أثبت الواقع تهافتها وتناقضها مع الفطرة البشرية، فنحن نجده يشيد برواد هذا الفكر قائلا: «إن ماركس، ونيتشه وفرويد يمثلون القيمة، وماركس هو الفيلسوف الذي وفر لنا بروز الفكر الجدلي، الذي ينطبق على دور الاقتصاد في التاريخ» غربال الديالكتيك.

ولم يقتصر أركون على الإشادة بماركس وفلسفته المادية ولكنه كثيرا ما يستخدم مبادىء الفلسفة الماركسية في تحليلاته وقراءته للفكر الإسلامي مثل «صراع الأشداد» و «حركة التاريخ» و «فلسفة التناقض» وأركون في هذا المنحى لا يختلف عن تلك الزمرة المحسوبة ظلما على الفكرين العربي والإسلامي، والتي ما أن تتلقف شيئا من الفكر الغربي أو تطلع عليه حتى تبدأ ترديده دون وعي وإدراك، فكيف إذا كان هذا الشيء الذي تلوك ألسنتها به أضحى في الفكر الغربي نفسه من مخلفات الماضي، بل إن المفكرين الغربيين ليخجلون من الإشارة إليه بعد سقوط الحكم الماركسي والذي لم يكن إلا وهما

كبيـرا يعيش بين دفات الكتب وفي رؤوس الفئة المستفيدة وحدها من كدح الفئـات المسحـوقـة في المجتمـع واستخدامهم متى شاؤوا في إذكاء روح الصراع في تلك المجتمعات التي ما انكشف الغطاء عنها حتى بدت لاهثة متعبة تبحث عن الحد الأدنى من تطلعاتها ورغباتها المشروعة، ثم إن هذه الزمرة التي يحلو لها الحديث بين الحين والآخر عن عالمنا الذي تنتسب إليه بالاسم فقط، بينمـا هي في واقـع الأمر بعيدة كل البعد عن معايشة واقعه وتفهم الظروف المحيطة به حتى يكون حديثها عنه مبنيا على أسس وضوابط علمية تمكنها من الاقتراب من تلك المنهجية التي تتهم الجانب الآخر بعدم التزامه بها ـ هذه الزمرة تتغافل عن أمر في غاية الأهمية وهو أنه لا يمكننا أن نطبق المقاييس التي هي من نتاج الفكر الغربي في هذا العصر على العصور الأوروبية الوسطى مثلا، وهذا أمر لا يختلف عليه أحد وتحكم به بدهيات المنطق وأولياته المعروفة للناس جميعا حتى وإن تباينوا في منطلقاتهم وتعددت آراؤهم الفكرية والثقافية فكيف إذا سعت الزمـرة الأركـونيـة إلى تطبيق الديالكتيك «الماركسي» على الجـوانب الاقتصادية والاجتماعية في الفكر الإسلامي، وإذا كان المحتوى العلمي من وجهـة نظرهـا يرتكـز أســاسا على اللسانيات الحديثة وعلى وجه التحديد لسانيات «بنفينست وتشومسكي».

إن ذلك ـ بلا شك ـ يعد من الظلم والإجحاف الكبيرين، ولهذا فلا غرابة من أن تأتي أحكامهم جائرة وآراؤهم مضطربة ولا غرو أن يغمطوا تراث هذه الأمة حقــه، فالرؤيـة الواضحـة لا يمكن أن تصــدر عن نفوس يملؤها الحقد على مجتمعـاتهـا وتتحكم فيهـا الآراء الجاهزة والمقاييس المحدودة والعاجزة عن استيعاب المفاهيم الحضارية لكل أمة على حدة والتعامل مع تلك الخصائص التي تتميـز بهـا المجتمعات وتنفرد بها دون غيرها من المجتمعات الأخرى، وباختصار فإن أركون يحفظ الكثير من المصطلحات الغربية الجاهزة ولكنه لا يحفظ شيئا من تاريخ أمته ولا يمتلك الحد الأدنى من أدوات البحث العلمي وهو التجرد والنزاهة وهذا وحده يكفي في الطعن فيما يطرحه من آراء مبتورة يسعى لتسويقها بيننا بعض أنصاره ومريديه.

المثقفون الصامتون

● لقد كان للنظام العراقي الآثم خلال عقد من الزمن أو أكثر خططه المتعددة في اجتذاب عدد من المثقفين والكتّاب العرب خصوصا أولئك الذين يصنفون من ضمن النخبة التقدمية التي تزعم أنها تسعى لتطوير الفكر العربي، وتحديث أدبه وفنونه، ولقد وجد هذا النظام وشائج عديدة تربط بين فكره العلماني المتجرد من العقيدة الإسلامية وبين الاتجاهات الحديثة التي تسعى لتغيير معالم الثقافة العربية عن طريق استخدام المناهج المستمدة من الفكر الماركسي (كنظرية لوسيان غولدمان GOLD MANN) في دراسة تراث الأمة وفكرها، وتفسير النشاط العقلي للمبدعين على ضوء مفاهيم الجمالية الماركسية وهي المفاهيم التي اعتمدها «لوكاشي» عند تحليله لعدد من أعمال الكتاب الماركسيين سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١م.

● الفكر العلماني الذي تنطلق منه القيادة العراقية ينظر إلى الإسلام في مجمله ـ كما تثبت المنشورات الحزبية المضللة ـ على أنه تراث اجتماعي صرف يجب إبعاده عن التطبيق العملي والممارسة الحياتية، ولكن لا يمانع ـ في الوقت نفسه ـ من استغلاله كوسيلة لجذب البسطاء، وإغراء السُّذَّج من عامة الناس، وكذلك الوضع مع المنهج الإنثروبولوجي الذي وضع أسسه «ليفي شتراوس» وسلفه «سيرجيمس فريزر»، SIR, JAMES FRAZER في كتابه المعروف «الغصن الذهبي» THE GOLDEN BOUGH والذي يصنف العقائد الدينية وما أتت به من تشريعات مثل تحريم زواج الأقارب، والنهي عن أكل لحوم حيوانات معينة ضمن باب الأساطير التي لا يمكن للعقل المتمدن الراقي أن يعتنقها ولكن يمكن الاستفادة منها كمعادل فني في الأعمال الإبداعية على مختلف أشكالها.

● هذا المنهج الانثروبولوجي المتوافق مع الفكر العلماني في كثير من تصوراته الدينية، والذي يصر بعض المفكرين العرب على الأخذ به في دراسة

الفكر العربي، هو الوسيلة التي ولج منها النظام العلماني العراقي لإغراء عدد من الأسماء الثقافية الفاعلة في الساحتين الفكرية والأدبية بأن تكون أصواتا تطبـل له، وأبواقا تبرر سلوكه الدكتاتوري وممارساته البربرية وهي الأصوات نفسـها التي تمتنـع عن إدانة أفعاله المهينة والمزرية ضد الشعب الكويتي الآمن، ولعلها تحتج بأعذار واهية، وتختلق تبريرات مضحكة لا يمكن قبولها عقلا فضلا عن تصديقها، فبعضـهم يدعي أنه أديب لا يفقه في شؤون السياسة لذا فهو يسعى للترفع عنها، والآخر شاعر أسطوري لا يجد في الأزمة الحالية ما يفجر طاقة الإبداع فيه، وقد نعذرهم أنهم في يوم من الأيام أسرفوا في مديح الطاغية دون علم وعلى غير هدى، وأنهم قبلوا الأوسمة والجوائز في مهرجانات «المـربـد» و «الفـاو» لأنه غرر بهم، ولكن صمتهم اليوم بعد أن تكشفت لهم الحقائق وتبدت لأعينهم النوايا السيئة لا يمكن تفسيره إلا على ضوء ما ذهبنا إليه في بداية هذا المقال وهو وحدة المنطلق الفكري وتطابق الرؤية الأيدولوجية بدءا من نزعة سفك الدماء وانتهاء بتغيير ملامح الثقافة العربية، والهوية الفكرية للأمة والمرتبطة بالإسلام عقيدة ومنهجا.

* * *

لويس عوض والحقد الصليبي على الإسلام والعروبة من خلال أوراق العمر

كثير هم أولئك الذين يدبجون المقالات ويكيلون المديح لفئة محسوبة على الثقافة العربية لم تتورع عن المجاهرة بالعداء للإسلام والكراهية للعروبة، ولم يستطع أحد أن يجري في هذا الميدان كما جرى الكاتب الشيوعي «لويس عوض» ولعل مذكراته التي كتبها وهو على فراش المرض توضح هذه الحقائق التي يجب على أولئك المعجبين بضجيجه أن يدركوها، فلا يمكننا بحال من الأحوال أن نسكت عن هذا الجانب المظلم في فكر هذا الرجل ونحن الذين كثيرا ما ننفر من الدراسات الاستشراقية لأنها تنضح بالحقد على الإسلام وأهله ـ وقليل منها ما هو براء من ذلك ـ وإذا كان هذا موقفنا من الفكر الاستشراقي الحاقد، فإن نظرة عجلى على ما تفوه به عوض سوف تحيل ما قاله المستشرقون ـ عن تعصب ـ في الإسلام مدحا وتجعله ثناء، لأن ما خطه قلم هذا الصليبي الحاقد هو السم الذي لايستطيع مسلم أو عربي أن يتجرع قطرة واحدة منه، فما بالنا نمدح من يشتموننا ونحب من يكرهوننا، ونصفق لمن يستهزئون بنا، ونرفع الرايات لمن أفنوا حياتهم يبحثون عن الثغرات ليصلوا منها إلى غاياتهم الموءودة وهي ضرب الإسلام وإلصاق التهم بكتابه المنزل، ولغته الخالدة، ورموزه المضيئة.

يقول لويس عوض في مذكراته «أوراق العمر سنوات التكوين» ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة متحدثا بكل صراحة عن شيوعيته وقد بهرتني كتابات سلامة موسى في هذه السن الباكرة فكنت أشرح ما أتعلمه منها من مبادىء ومعلومات لزملائي من الطلبة في مدرسة «المنيا» الثانوية، بل وكنت أكتب موضوعات الإنشاء بالإنجليزية عن الاشتراكية والشيوعية، وأناقش مستر «سوينبيرن» وذات مرة قال لي في الفصل عام ١٩٢٩م أنت التلميذ الشيوعي الوحيد في هذه

المدرسة، ص٣٢٩ .

ولا نعلم إذا ما كان هذا الأستاذ الأوروبي يستهزىء بشيوعية لويس عوض، أم يمدحه ـ لأنه رآه متفانيا في الذود عنها، فالمعروف أن الأوروبيين وخصوصا ـ الإنجليز منهم ـ كانوا يكرهون الفكر الشيوعي كراهية لا حدود لها، ومع أن هناك حزبا شيوعيا في بريطانيا منذ عشرات السنين إلا أنه لم يفلح يوما في أن يفوز ولو بنائب واحد في مجلس العموم البريطاني، ولقد قفل هذا الحزب أبوابه بعد سقوط الشيوعية في معقلها وبقائها حية بين بعض الرفاق في عالمنا العربي.

أما كراهيته للعرب، فلعل العبارات التالية تكون درسا لأنصار الفكر القومي الذين كانوا يحسنون الظن بعروبة لويس عوض، يقول من وُصِفَ أخيرا بأنه مدرسة ثرية بالعمق والمعرفة: «وكنت لا أحب البدو، ولا أخالطهم بل كنت أُكِنُّ احتقارا شديدا، لكل الأقوام البدوية وأتصورها معادية للحضارة ـ بنت الزراعة والصناعة ـ والاستقرار وكنت أراها عقيمة عقم الصحراء». ويعلل عوض احتقاره الشديد للبدو وحياتهم ـ ويدخل في هذا عقائدهم وعاداتهم الاجتماعية ـ بالأسباب التالية، «وربما كان هذا الموقف من البدو نتيجة لما كنت أسمعه في أسرتي وخارج أسرتي، من أن الحياة ـ حياة العرب ـ قائمة على السلب والنهب والخطف والعدوان على الفلاحين» ص٤٥٠ .

ولا أعلم كيف يأتي مثل هذا الكلام من شخص يؤمن بالبحث العلمي والموضوعي ويدرسه لطلابه فهل السماع ـ وحده ـ يكون سببا في أن نكره أقواما أو نمقتهم، أم أن هناك أسبابا أخرى لهذا العداء المتمكن في نفس «لويس عوض» لم يرد الإفصاح عنها كما أفصح عن سلوكياته الساقطة في المذكرات نفسها.

ويرسم لويس في مذكراته صورة منفرة للعربي بقوله «ولم أر عربيا إلا وكان حاملا بندقية كأنما البندقية أداة إنتاجه، أو كأنه في حرب دائمة مع البشرية، ولم أكن أفهم كيف يمكن أن يقيم مدنية من ليس له عنوان ثابت، وكان من محفوظاتي في القرآن أن الأعراب أشد كفرا ونفاقا، وكان كل العرب عندي أعرابا» ص٤٥١ .

العرب جميعا عند من جعله بعض كتاب أعمدة الصحافة الساذجة مدافعا عن الحرية، العرب جميعا عنده أعراب، يحملون بنادقهم ليقتلوا وسيوفهم ليصارعوا وهم ليسوا بأهل حضارة، ونسي أو تناسى أن حضارة المسلمين والعرب كانت تقوم أمام عينيه في حواضر العالم العربي من القاهرة ودمشق إلى الرياض والرباط، ونسي أنه كان هو شخصه عالة على الفكر الذي تركه أولئك القوم الذين ليس لهم عنوان ثابت، والغريب جدا أن عوض يستشهد استشهاداً خاطئاً بآية من القرآن كتاب الله الكريم ووحيه المنزل على خاتم رسله سيد العرب والعجم محمد بن عبدالله ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ وهو الذي عاش طوال حياته يحارب هذا الكتاب ولغته وعلى الذين يمارون في ذلك أن يرجعوا إلى كتابه عن فقه العربية وهو الكتاب الذي استصدر مجمع البحوث الإسلامية أمرا بمنعه لما يحمله من دعاوى باطلة ضد لغة القرآن في بلد القرآن وعلمائه وحفظته.

ولا يتوقف عوض بين الحين والآخر في مذكراته ـ سيئة الذكر ـ عن التعرض للعرب بلسان كله الفحش وعبارات يتورع عن التفوه بها كل من نظن أنه عدو لهذه الأمة وتاريخها وحضارتها.

تقول عبارات «لويس عوض» بالحرف الواحد: «وذات يوم كنت جالسا في محطة العلمين وإذا أحد البدو يدخل المحطة، ودون أن يسلم جلس قبالتي وشرع يأكل معي، وتجمعت في نفسي كل كراهيتي للعرب، فنهضت قائلا: من أذن لك أن تدخل المحطة ؟» ص١٥٤ .

والسؤال الذي طرحه عوض لا يقصد من ورائه شخصا معينا، ولكنه يقصد به أمة كاملة، فهو لا يعادي الأشخاص ولكنه يعادي الأمة، ولا تتجمع الكراهية إلا في نفس لا تعرف الخير ولا تحس به، إنها النفس المظلمة والبصيرة المنغلقة.. وإذا كان هذا رأيه الذي سطره قبل وفاته في الأمة التي لا يخجل بعض أبنائها من أن يجعله من رموزها المبدعة وعلاماتها المضيئة ـ بينما هو يتبرأ منها ومن الانتساب إليها ـ إذا كان هذا رأيه الذي قاله وهو يتمتع بالحرية الكاملة لما يريد أن يقوله والدليل على ذلك أنه نشر بين دفتي كتاب فما هو رأيه الحقيقي في كاتب مثل «العقاد» ومفكر مثل «محمد عبده» هذا ما سوف نعود إليه في كتابات نقدية قادمة إن شاء الله.. موضحين أن رأيه غير الموضوعي في

بعض الشخصيات الإسلامية مثل «جمال الدين الأفغاني» و «محمد عبده» كان ترديدا لمقولات غربية قام بترجمتها عندما كان يتردد كأستاذ زائر في بعض الجامعات الأمريكية، أما كتابه في الأدب الإنجليزي الحديث الذي لم يذكر فيه مصدرا واحدا من المصادر التي استقى منها موضوعاته فقد كشف المتخصصون في الأدب الإنجليزي عن سطو عوض على أفكار غيره في الوقت الذي يدافع فيه البعض عن سرقاته الفكرية، وهم يجهلون اللغة التي يمكن أن تقودهم إلى مواضع السطو الفكري الذي هو أسوأ أنواع السطو وأشدها ضررا، وكان بإمكانهم أن يتركوا الأمر لأصحابه، والعلم لأهله ويعرفوا مواقعهم فلا يتجاوزونها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

***

المقالح والبياتي

لعله من قبيل التذكير أن أشير إلى أنني كتبت في زاوية (رؤية فكرية) مقالا أوضح فيه أبعاد الموقف الفكري المتناقض للشاعر عبدالوهاب البياتي والذي حاول أن ينفي عن نفسه تهمة التوجه الماركسي بعد أن أثبتت هذه العقيدة فشلها وتهافتها وذلك في مقابلة معه بصحيفة الحياة ٣١ مارس و ١ أبريل ١٩٩٠م والأدهى من ذلك أنه زعم في تلك المقابلة أنه كان واحدا ممن بشروا بسقوط سور برلين منذ أمد بعيد مع أن مراجعة بسيطة لدواوينه الشعرية وخصوصا «عشرون قصيدة من برلين» تجسد لنا تبعيته الذليلة وإيمانه الأعمى بمنظومة الفكر الشيوعي مع رغبة جامحة ودعوة محمومة لنشرها في المجتمعات العربية وكذلك فعل عدد آخر من الكتّاب العرب الذين بشروا في مطلع الخمسينات الميلادية بنظرية الواقعية الاشتراكية المنبثقة عن الفكر الماركسي نفسه مستخدمين كل الأساليب الرخيصة في سبيل وأد كل إبداع لا ينطلق من هذه «الموضات» الفكرية التي يشهد الغرب في كل عقد من الزمن بروزها ثم تلاشيها واختفاءها تبعا لتطورات سياسية واجتماعية واقتصادية تمر بها تلك المجتمعات.

وجاءت أزمة الخليج لتُعَرِّي «البياتي» وزمرة أخرى ممن هم على شاكلته في المعتقد والمنهج ولتبرز مرة أخرى تناقضاتهم الفكرية وتوضح إعوجاجهم الذي لا يمكن له أن يعتدل ويستقيم مهما حاول الآخرون تحسين صورته وتلميعه أمام أعيننا فلقد أعلن البياتي المنادي بالحرية تأييده لخانق الحريات في بغداد ودبج قصائد المديح في طاغية العصر وهو الذي كان بالأمس ينعي على القصيدة العربية دورانها في الأغراض الشعرية التقليدية.

وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يخفي ما يعتمل في أعماق نفسه ولا يمكن له أن يقدم نفسه بوجوه متعددة حسب المناسبات ومقتضيات الظروف «فإن البياتي» وشريكا آخر له في المعتقد الفكري وهو الدكتور «عبدالعزيز المقالح»

أعلنـا في ندوة إذاعيـة بثتهـا إذاعـة صنعـاء مسـاء يوم الجمعـة الموافق ٢١/٩/١٩٩٠م عن تأييدها لمبدأ إعادة توزيع الثروة وهما ينطلقان في هذه الدعوة من إيمانهما المطلق بالنظرية الشيوعية التي دفنها «جورباتشوف» في الساحة الحمراء ودفن معها الرموز الشيوعية الأخرى المقترنة في أذهان أهلها وأبنائها بالقهر والظلم والاستبداد لمنافاتها للفطرة التي خلق الله الناس عليها ومصادمتها لحقائق هذا الكون وهو ما أدى في النهاية إلى تآكلها وفشلها وسقوطها.

لم يكتف البياتي الذي استغل في يوم من الأيام كرمنا وتسلل خلسة إلى بعض المنابر الثقافية لينشدنا شعرا فجا وإبداعا رخيصا قال عنه البعض يومها إنه أضاء قناديل الليل وأزاح ستار العتمة وغسل النفوس والأرواح معا. نعم هذا البياتي نفسه ورفيقه «المقالح» يطلقان علينا سمات الرجعية والتخلف وهما لا يقصدان بذلك سوى تمسكنا بالإسلام واعتزازنا بسلفيته عقيدة ومنهجا فكريا.

لقد استهجن بدر شاكر السياب ومجموعة أخرى من شعراء العراق في بداية الخمسينات الميلادية أسلوب البياتي الأرعن في التبشير بالمنهج الماركسي والدعوة إلى تطبيقه في كل شؤون الحياة العربية بدءا من السياسة وانتهاء بالثقافة مع أنهم كانوا يشاطرونه في تلك الفترة المعتقد نفسه، مقالة شوقي بغدادي، بدر شاكر السياب من الداخل، صحيفة الحياة ٢٦ مارس ١٩٩٠م.

ويدور الزمن ليثبت البياتي من جديد شدة تخلفه الفكري ويكشف عن حقد متأصِّل يتطابق مع حرفية الأيدلوجيات الميتة التي يأمل بعودة الحياة إليها. ويجد نصيرا قويا في المقالح الذي جعل منذ زمن جامعة صنعاء وكرا للتوجه اليساري يحتضن فيه الكُتَّاب الذين تتخلص منهم بلادهم وتنفيهم من أراضيها بسبب رعوناتهم الفكرية من مثل كمال أبو ديب الذي أطلق عليه أستاذنا الفاضل أحمد الشيباني في سلسلة مقالات له بصحيفة الرياض حاخام الفكر الحداثي ويُكوِّن منهم أي المقالح فئة تسعى للطعن في دين الأمة والعمل بكل الأساليب على تغيير الوجه الحقيقي لتراثها ومحاولة طمس معالم الفكر العربي الأصيل بحجـة التحديث والتجديد وتحت ستار براق ينخدع به البسطاء والسذج من أشباه المثقفين وأنصاف الكتَّاب.

يوسف الخال[1]

مما بليت به الأمة الإسلامية والعربية في العصر الحديث تسلل بعض الشخصيات الهدامة إلى مواقع الفكر والإعلام فيها، ولم تكتف هذه الشخصيات بنشر آرائها الغريبة التي تسعى لهدم الحضارة الإسلامية التي بنيت على المصدر الإلهي المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل تعدت ذلك إلى إيهام عقول شباب الأمة أن الدواء الناجع للأمة من مشاكلها يكمن فيما تدعو إليه من آراء وما تتبناه من نظريات، ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا إنه نتيجة لهذا الإيهام الباطل أصبحت هذه الشخصيات من منظور بعض شداة الأدب في بلادنا، روادا تمجد وإن أولئك الذين يتعرضون لهذه الشخصيات التي قام بتنصيبها أعداء هذه الأمة بالنقد أو المحاورة العلمية هم أعداء الفكر الحر والتجديد المنشود، ولقد قامت مجلة «البيان» الصادرة «عن المنتدى الإسلامي في لندن» في عددها الصادر في شهر شعبان ١٤٠٩هـ بعرض لفكر واحد من هذه المعاول الهدامة في تراث الأمة وفكرها، وهو الشاعر يوسف الخال، وقد قام بهذا العرض الدكتور وليد الطويرقي بادئا بموقفه من اللغة العربية، حيث يدعو «الخال» إلى اعتماد لغة الكلام «العامية» لغة أدبية لأنها لغة عربية متطورة من اللهجات الجاهلية، ولعل من المفارقات العجيبة في هذا الصدد ربطه بين استعمال اللغة العامية والنضال العربي ضد الوجود الإسرائيلي، فهو يدعو لتأجيل كل نضال ضد إسرائيل حتى يغير العرب لغتهم من فصحى إلى عامية حيث كتب في أواخر حياته في النهار العربي والدولي بتاريخ ٢٥/١/١٩٨١م وبلغة عامية لبنانية «اللغة أكبر مشكلة عمبيوا جهوها العرب، هي أكبر من مشكلة إسرائيل لأن مشكلة إسرائيل مربوطة بمشكلة اللغة ومن دون حل مشكلة اللغة باعتماد المحلية ما يتحرر العقل العربي، وما بيتقدم الإنسان العربي، حتى يتغلب على

مشكلة إسرائيل»!.

أما موقف الخال من التراث العربي واعتزازه بنصرانيته الذي يدل على سوء توجهه ويوضح حقيقة موقفه من الإسلام وتراثه فهو ما سوف نقوم بإذن الله بإيراده فيما يلي من الموضوعات.

* * *

يوسف الخال[٢]

لعله مما يدعو إلى الغرابة أن ينسى بعض المتحمسين لأدب ت.س. إليوت، أن قصيدة الأرض اليباب قد بنيت أساسا على فكرة مسيحية صرفة تنبثق من تعصب هذا الكاتب لدينه وتراثه، كما قد يتجاهل البعض أن كثيرا من روايات «فرانز كافكا» كانت تنطلق من فكر صهيوني يبشر بالعودة إلى أرض الميعاد وتأسيس الدولة اليهودية، والمتحمسون كذلك ليوسف الخال يريدون منا أن نتغاضى عن نصرانيته واعتزازه بالكتاب المسيحي المقدس، فلقد صرح - أي الخال - كما يذكر الدكتور وليد الطويرقي «بأنه سعيد أن يلقى وجه خالقه وفي يده اليمنى شعرية غيرت إلى الأفضل مسيرة الشعر العربي، وفي اليد اليسرى ترجمة عربية حديثة للكتاب المقدس أتاحت للألوف المؤلفة من قرائه أن يخترقوا قدر الإمكان في المرحلة الراهنة جسد اللغة العربية القديمة الميت - كذا حسب تعبيره - إلى روح مضمونه الحي».

وفي مناسبة أخرى يذكر بكل فخر : «إنني كشاعر مسيحي والمسيحية جزء من تراثي إن لم تكن في جوهرة وصميمه، المسيحية مرتبطة ارتباطا كيانيا عميقا مع التراث الذي سبق التاريخ العربي في هذه البقعة من الأرض».

إن «الخال» وأمثاله من المرتبطين بالفكر المسيحي العربي ينطلقون في معالجة قضايا اللغة والأدب والفكر من منظور ثقافي مسيحي صرف يعتبر الإسلام عقبة كبرى في طريق التبشير بالمسيحية، ومحاولة كتابة تاريخ الأمة العربية اعتمادا على التراث المسيحي، وهو ما يصطدم مع حقائق التاريخ والفكر، فالأمة العربية لم تشارك في النهضة الحضارية العالمية إلا من خلال الدين الإسلامي الذي أيقظها من سباتها وغير من رؤيتها للحياة والكون وبث فيها الروح العلمية التي أنتجت ذلك التراث الحي الذي كان إسلاميا في منطلقاته وإسلاميا في توجهه، وبالتالي إسلاميا في هويته، ولعلنا نذكر أولئك

المتحمسين للخال وفكره أن النصرانية التي كانت محدودة الانتشار في الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم لم تستطع أن تجمع أمتنا على كلمة واحدة أو أن تهيىء نفوس أبنائها للعمل الحضاري وتجعلهم قوة جديدة بين الأمم الأخرى في تلك الحقبة، إن الذي فعل ذلك كله هو الإسلام وحده، فهل من معتبر من أولئك الذين خدعوا بمقولات التجديد ونظريات التحديث في الفكر والأدب العربي ولم يتعمقوا في الوسائل والأهداف التي انطوت عليها هذه الحركات.

إن هدفها الوحيد أن يخلع أبناء العروبة رداء الإسلام ويستبدلوه برداء جديد براق ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

* * *

يوسف الخال(٣)

لقد كفانا أدونيس مؤونة توضيح أبعاد موقف الخال من التراث العربي.. وذلك في كتابه قصائد مختارة.. «التراث العربي عنده ـ أي الخال ـ هو التراث الإنساني كله.. إنه التراث الذي تكون على الأرض منذ القدم وتفاعل عبر المتوسط مع التراثات التي تشكل بجملتها الحضارة الحديثة، وإن كان يوسف الخال يصدر في شعره عن المسيحية العربية.. أكثر مما يصدر عن الإسلامية العربية.. فلا يعني ذلك أن شعره غير عربي».

إن توجهات أدونيس تجاه التراث العربي تتوافق مع توجهات الخال في بناء فكر يعتمد في منطلقاته على المسيحية العربية، وهي توجهات ـ كما ذكرنا في موضوعات سابقة ـ تتجاهل حقائق تاريخ الأمة العربية، فمتى كان للنصرانية دور في تشكيل هوية التراث العربي أو تحديد منطلقاته ؟ وأين كانت هذه القوة الحضارية الفاعلة في بناء فكر حضاري مستقل قبل مجيء الإسلام ؟ وهل تستطيع المسيحية العربية في أي وقت من الأوقات كما يتطلع الخال وأمثاله.. أن تقدم بديلا لهذا التراث الإسلامي الفاعل والقوي ؟.

إن هدف الخال هو الفصل بين الفكرين الإسلامي والعربي، ولهذا فهو يضع نفسه ـ كما يذكر الدكتور الطويرقي ـ «فوق التراث برمته ويشرف عليه بنظرته المملوءة بالغرور والعجرفة والادعاء».

يقول الخال في أسئلة الشعر «فأنا معني جدا بتراثي العربي الذي لا تراث لي سواه، وإنما أريد أن أغنيه وأعززه وأنقده وأفرزه وأرفض ما أرفض منه، وأقبل ما أقبل.. وذلك لجعله أساسا حديثا صالحا لبناء حياة أفضل لنا ولأولادنا».

في الوقت الذي توضح مقولة الخال السابقة موقفه الانتقائي من التراث، فإنه يمكن اعتبارها تجسيدا لمأساة المسيحيين العرب الذين يعلمون قطعا

باستحالة انتمائهم إلى الحضارة الأوروبية، ولهذا فهم يتطلعون إلى تغيير واقع التراث العربي ليتناسب مع موقفهم العقائدي.. مع أنهم متيقنون في دواخلهم من أن التراث العربي لا يستطيع أحد بحال من الأحوال فصله عن نسقه الإسلامي، وأن مقولة وجود تراث عربي لا يرتبط بالإسلام وأسسه هي مقولة أريد بها التمويه على أصحاب العقول الساذجة.. وما أكثرهم في عالمنا.

***

الباب الخامس

موقفنا منهم وموقفهم منا، والموقفان بإزاء الحضارة

تراثنا العلمي في الجامعات الغربية

● لقد ترك وجود العرب حوالي ثمانمائة عام في شبه جزيرة أيبيريا علامات لا تمحى على الأرض الأيبيرية، وعلى الفنون واللغات التي يتكلمها الناس.

● ولكن الجانب الأهم هو ما تركته الحضارة الإسلامية من آثار على الحضارة الأوروبية في ميدان العلوم التطبيقية، وهو التأثير الذي يقف الغرب إزاءه موقفا متناقضا، فتارة يثبته وأخرى ينفيه، ويأتي هذا النفي نتيجة لتعصب بعض المؤرخين الغربيين ضد كل ما هو إسلامي أو عربي، ولو أردنا أن نحصي الأمثلة لتأثير التراث الإسلامي على الغرب فإنه سوف يطول بنا المقام إلا أننا سوف نأتي على ذكر مثال فريد ذكره المستشرقان شاخت وبوزورث في كتاب «تراث الإسلام» ج٣، عالم المعرفة، الكويت، وهو أن مؤسس علم التشريح الحديث أندرياس فيساليوس ANDEREOS VESIALIUS نشر في عام ١٥٣٨م، جداوله التشريحية الستة كدراسة تمهيدية لمؤلفه الرئيسي المعروف باسم الصنعة FABRICA ، الذي كتبه عام ١٥٤٣م، وقد ورد في النص اللاتيني لهذه الجداول عدد من المصطلحات العربية، ولم تكتف هذه الدراسة بشرح النصوص الواردة في الجداول المذكورة شرحا دقيقا، بل أظهرت كيف اهتدى «فيساليوس»، إلى معرفة المصطلحات في اللغات السامية التي لم يكن هو نفسه ضليعا فيها. ويختم المستشرقان حديثهما عن هذه القضية قائلين: وهكذا حملت جداول فيساليوس التشريحية التراث العربي في الطب إلى مطالع العصور الحديثة.

● ويذكر العالم المسلم «فؤاد سيزكين» في كتابه «محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية» أن المستشرق الألماني وستنفلد F. WUSTENFELD «ألف في سنة ١٨٤٠م. تاريخ الأطباء العرب»، ومن أهم ما نشر في أواخر القرن التاسع عشر فهرس مكتبة برلين الذي ألفه الوارد A.AHLWARDT في عشر

مجلدات كبيرة بين سنوات ١٨٨٧ ـ ١٨٩٩م، وهو فهرسة للمخطوطات العربية في مكتبة برلين.

● إن احتفاظ دُور المخطوطات في الجامعات الغربية بخزائن خاصة للتراث الإسـلامي يكاد يكون أمرا شائعا ومعروفا وهو يؤكد مقولة اعتماد الحضارة الغـربيـة ونهضتها الحديثة على ما خلفه المسلمون والعرب من تراث متعدد الجوانب، إلا أن أهم تلك الجوانب هو الجانب العلمي ـ التطبيقي. ولقد أتيح لي أثناء دراستي بجامعة مانشستر لتحضير درجة الدكتوراه التردد على مكتبة «جـون رايلنـدن» JHON RYLANDS التابعة للجامعة نفسها، وقد أنشئت هذه المكتبة في نهاية القرن التاسع عشر، وشكلت المخطوطات العربية المشتراة من «الايـرل كراو فورد» EARL CROW FORD في عام ١٩٠١م. جزءا كبيـرا من مقتنيات المكتبة التي لايزال موقعها القديم يتوسط مدينة مانشستر.

● ومن خلال الاطلاع على الفهـرس الذي صنـع خصيصـا لفهـرسـة هذه المخطوطات العربية والذي يقع في حوالي ١١٥٣ صفحة، نجد ما يقرب من حوالي خمسين مخطوطا هاما في الطب «مثل كتاب القانون في الطب لابن سينا والموسوعة الطبية المعروفة باسم «دستور العجائب وفهرسة الغرائب». وهذه الموسوعة مكونة من عدة أجزاء في العلوم الآتية: العلم الطبيعي، علم الحساب، علم الهندسة، علم أحكام النجوم، علم التشريح، علم الموسيقى، ومن المعلومات المدونة في آخر هذه الموسوعة يظهر لنا أنها كتبت في مكة المكرمة وفي وقت متأخر من القرن العاشر الهجري.

● كمـا نجد مخطوطات في علوم الرياضيات والهندسة، مثل كتاب المعطيات لأقليـدس، ترجمـة إسحـاق بن حنين ومـراجعة ثابت بن قرة، وكتاب أصول الهنـدسـة والحسـاب لنصير الدين الطوسي، ورسالة لابن الهيثم في تربيع الدائرة، وكتاب معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكروية «لحسن ومحمد وأحمد أبناء موسى بن شاكر» وكتاب المخروطات لمحيي الدين يحيى بن محمد بن أبي شاكر المغربي الأندلسي.

● يضـاف إلى ذلك عدد من المخطوطات في علم الفلك، وأخرى في علم الفلسفة

تقرب من حوالي أربعين مخطوطا، أما المخطوطات العربية التي تتناول علوما نظرية، كالعلوم الشرعية، والتاريخ والجغرافيا، فهي كثيرة وسوف يكون لنا وقفة أخرى معها.

● إن التراث العربي يسكن في دُور الغرب العلمية لقرون عديدة ثم هو يلاقي الجحود من الغربيين ـ أنفسهم ـ الذين أفادوا منه ـ باعتراف المنصفين من أبنائهم ـ في بناء الحضارة العلمية الحديثة. ولكنهم أعرضوا عن روح المنهج الإسلامي الذي طبقه المسلمون عندما كانوا روادا للعلوم والمعرفة. أما الجحود الأمرُّ الذي يلاقيه هذا التراث. فهو هذا التجاهل من أبنائه الذين يستهويهم بريق الحضارة الغربية ولكنهم أبعد ما يكونون عن التعمق في أسس بنائها. وعن التفريق بين أصيلها وزائفها. كما أنهم يجهلون كيفية الاستفادة من معطياتها. وهو قصور في الرؤية الحضارية لا يكون علاجه إلا بالعودة إلى تراثنا الحي ودراسته عن إيمان ومعرفة وبصيرة.

***

الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة

(١)

● تحدث الدكتور محمد الرميحي، في مقال له: بعنوان «الإسلام والثقافة اليهودية ـ المسيحية»[١] في مجلة «المجلة» (١٤/١١/١٩٨٩م) عن موقف الثقافة اليهودية المسيحية JUDAEO-CHRISTIANI في المجتمع الأوروبي من الدين الإسلامي، وثقافته، وتراثه، ويدلل الدكتور الرميحي، على ذلك، بعدة حوادث، من أهمها: منع الفتيات المسلمات المحجبات من دخول مدارسهن في بلد يدعي الحرية والعدالة.

والموقف ـ نفسه ـ يتكرر في كل بلد أوروبي: عندما يتشبث المسلمون بحقوقهم المشروعة، أو يمارسون نوعا من ثقافتهم التي يستمدونها من دينهم الإسلامي، أو تقاليدهم الاجتماعية التي لا تلحق أذى ـ عند استخدامهم لها ـ بالمجتمعات الأخرى، أو ينتج عنها تهديد لمصالح البلد الذي يعيشون فيه: كأقلية دينية، لها منطلقاتها، ورؤيتها الخاصة في هذا الحياة، وما يتصل بها من شؤون وممارسات مختلفة.

إلا أن المتتبع للحركة الثقافية والعلمية، في الغرب، يجد أن هذا الموقف المضاد للإسلام والمسلمين إنما مرده لنوعية الثقافة التي يتلقاها الفرد الأوروبي، من هذه المصادر الثقافية، والوسائل الإعلامية، التي لا تترك مناسبة سانحة إلا وتوجه ـ من خلالها ـ العديد من الاتهامات للدين الإسلامي، ولكن دون دليل يثبت ما تذهب إليه من تهم، أو تبحث فيه من قضايا، إنما هو الحقد المتأصل، والمواقف المتوارثة عن المؤسسات الاستشراقية المتعصبة.

---

(١) د. محمد الرميحي: الإسلام والثقافة اليهودية المسيحية ـ العدد «٥٠٩» ١٤/١١/١٩٨٩م: ص٣٧ .

● لقد تخصص - على سبيل المثال - كاتب من كُتّاب صحيفة «التايمز» البريطانية، وهو «روبرت سلك» ROBERT KILROY SILK في تعميق موجة العداء ضد الدين الإسلامي، من خلال مقاله الصحافي الذي ينشره يوم الجمعة من كل أسبوع.

ففي يوم ١٣ أكتوبر ١٩٨٩م - صدر مقاله الذي يناقش فيه قضية «السيادة الوطنية» NATIONAL, SOVEREIGNTY [(١)] وموقف رئيس الوزراء البريطاني السابق «ادوارد هيث» Edward Heath من قضايا شعوب أوروبا الشرقية، وعملها على التخلص من السيطرة الشيوعية، كما حدث في هنغاريا، وبولندا، وألمانيا الشرقية أخيرا، وعند تحدثه عن النتائج التي تتركها هذه المحاولات القومية على العالم، ومحاوره السياسية، نجده يقارن بين هذه النتائج والنتائج التي ارتكبها المسلمون باسم «القرآن» فيرى أن أعمال المسلمين، في هذا الشأن، تجاوزت كل الشرور التي يمكن أن تنتج عن أي حركة وطنية عرفها التاريخ!.

ولعل الكاتب المتعصب لم يقرأ التاريخ قراءة واعية: ليعلم مدى تسامح المسلمين مع الأمم الأخرى - مسيحيين كانوا أم يهودا - عندما كانوا يحكمون شبه الجزيرة الأيبرية، ومقارنته بذلك الموقف الذي انتهجته المسيحية، عندما استولت على شؤون الحكم في الأندلس، ويدخل في ذلك دور محاكم التفتيش التي تعقبت المسلمين، وأجبرتهم على الهجرة والفرار. على أنه لا يعدم - أيضا - المصادر الغربية التي تشير إلى مدى تسامح المسلمين في الأراضي المقدسة في فلسطين، وخصوصا مواقف القائد المسلم «صلاح الدين الأيوبي» الذي لم يرض بإراقة دم شخص واحد من غير المسلمين.. أو العرب، وأين هذا الموقف الإنساني والحضاري من المذابح التي ارتكبها الصليبيون ضد المسلمين في فلسطين، ومن أشهرها: مذبحة المسلمين بالقدس في يوليو

---

(١) Robert Kilry Silk

- The International Sanity in our Sovereignty
- The Times Newspaper
- Friday 13th October, 1989

١٠٩٩م، والتي وصفها «وليم الصوري» من المؤرخين الصليبيين قائلا: «إن البلد أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم».

● إن الجهل بطبيعة الدين الإسلامي، أو علاقة الأمة الإسلامية بالأمم الأخرى على مر العصور ليس هو العامل الوحيد خلف هذه الهجمة الثقافية الشرسة، ولكن الخلفية العنصرية تلعب دورا هاما في التحدي السافر لمشاعر المسلمين وقضايهم، يضاف إلى ذلك ما تحاوله الصهيونية - خصوصا الكتاب اليهود الذين تفسح لهم الصحافة الغربية صفحاتها - من نسف كل المحاولات الجادة التي يبذلها المسلمون لشرح مواقفهم الحقيقية للمجتمعات المسيحية الغربية.

***

الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة

(٢)

● تعرضنا - في موضوعات سابقة - لمقالة الكاتب «روبرت سلك» ROUBERT KILRY SILK المنشورة بصحيفة التايمز البريطانية (١٣ أكتوبر ١٩٨٩م) والتي يرى فيها أن المسلمين يستخدمون القرآن الكريم في تبرير أعمالهم السلوكية والشـريـرة، وكلمـة الشريرة هي من عبارات الكاتب نفسه (EVILS) وهدفه من استعمـالهـا هو تعبئة نفوس الإنجلين، أو من يعيش معهم من الأمم الأخرى بمشاعر الحقد والاشمئزاز ضد الجالية الإسلامية والعربية التي عانت - في السنوات الأخيرة - من أعمال انتقامية عديدة تحدثت عنها الصحافة البريطانية في حينها.

وحتى نؤكد على أن الذي يورده هذا الكاتب المتعصب وأمثاله إنما يمثل اتجاها في الحركة العلمية والثقافية البريطانية، نعود لمقال آخر نشره الكاتب نفسه، في صحيفة التايمز - أيضا - بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩م[١] يناقش فيه وضـع الأقليـات الأخـرى، والتي تشكـل جزءا من المجتمع البريطاني مثل: الأفـريقيين، والإيـرلنـديين، واليهود، وأحقيتهم في اختيار نظام الحياة الذي يعيشونه، حتى لو أدى ذلك الاختيار إلى انفصالهم عن طريقة الحياة البريطانية، بسبب عدم تهيئهم للاندماج فيها.

ولكن وضـع المسلمين - من وجهة نظر الكاتب - مختلف جدا: فهم - حسب عبـاراته الاستفزازية - يؤمنون بقانون آخر غير القانون البريطاني، وأن لهذا القانون - وحده - الأحقية في التحكم في منهاج حياتهم، ويتهم الكاتب - هذا

---

(١) - Riubert Kilriy Silk. Silent Slide Ti Wards. Separare Deveipment. The Times News Paper, Friday, 24 November, 1989.

القانون ـ أنه يسمح لهم ـ أي للمسلمين ـ بحرق الكتب والتحريض على قتل الآخرين، ثم إنهم على استعداد لشرح خلفية هذا السلوك أو الاعتذار عنه، لممثلي دوائرهم، من حزب العمال.

ويضيف الكاتب إلى ذلك أن المسلمين يطالبون بعدم خضوع نسائهم للتقاليد التي تخضع لها المرأة البريطانية، وأن هذا ـ من وجهة نظره ـ يمثل انتهاكا للحقوق المدنية، وخرقا للنظام البريطاني الذي يعطي المرأة الأحقية في اختيار ما تشاء من سبل الحياة، والتمتع بمباهجها ومباذلها، وهو يرى أن كل من يساعد المسلمين على إقرار هذه التقاليد الإسلامية الخاصة بالمرأة فهو شريك في سياسة عداء المرأة، وسلب حقوقها.

● ونرى ـ من البداية ـ أن الكاتب يدافع عن حقوق الأقليات الأخرى ـ واليهود جزء منهم ـ ثم يسلب المسلمين هذا الحق المشروع: وهو تناقض صريح، وخروج عن المنهجية، وتعامل بعقلية استعمارية صرفة.

المسلمون ـ كما تثبت الأحداث والشواهد في المجتمعات الغربية ـ الرأسمالية والشيوعية ـ هم الذين تعرضوا ويتعرضون لحرق دورهم، وانتهاك وسلب حقوقهم.

أما ما قام به المسلمون، في بريطانيا وغيرها، من الاعتراض على الكتب التي تهاجم دينهم، أو تتعرض لشخصية رسولهم بالتجريح أو الانتقاص، فهم يتساوون في ذلك مع بقية الأقليات الأخرى التي تدفعها غيرتها الدينية للمعارضة والمطالبة: كما حدث لليهود في بريطانيا، عندما ساروا في مظاهرة علنية في عام ١٩٨٥م ضد الزعيم المسلم عمر فرخانة، وتمكنوا من إصدار أمر، من وزارة الداخلية بعدم السماح له بدخول بريطانيا، بحجة عدائه لليهودية، وكما يحدث اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية من ضجة كبرى حول الكتاب [1] الذي صدر حول حياة الزعيم الأمريكي «مارتن لوثر كنج» MARTIN

---

(١) اسم الكتاب الذي صدر حول حياة «مارتن لوثر كنج» هو: And The Walls Came Tumbling Daown ومؤلفه هو صديق لكنج، واسمه Ralph Dqvid Abernathy انظر مقالة التايمز:

- Adultery If Martin Luther King

- Frim, Martin Fitcher. Washingtin. The Times News Paper, 14, October, 1989.

LUTHER KING والذي اتهم فيه مؤلفه هذا الزعيم بعدم استقامة سلوكه الشخصي، وخصوصا في الأيام التي سبقت مقتله في عام ١٩٦٨م.

لقد طالب عدد من الشخصيات، ومن بينهم النائب الديمقراطي «جيسي جاكسون» JESSE JACKSON برفع التهمة عن بطلهم التاريخي، وزعيمهم الديني.

وإذا كان لهؤلاء الحق في دفع التهمة عن بشر عادي أفلا يحق للمسلمين أن يطالبوا بدفع التهم عن أنبياء الله ورسله ؟.

ويبدو أن الكاتب انضم إلى الدائرة الفرنسية المتعصبة والتي تطالب الفتيات المسلمات بكشف رؤوسهن، وعدم التقيد بالزي الإسلامي الذي يحفظ للمرأة مكانتها، ويؤكد على طهرها وعفتها.

والكاتب الذي يعترض على حجاب المرأة المسلمة، ويرى فيه قيدا على الحرية، وعلامة على تميز الهوية، واستقلال الشخصية، لا يجد حرجا في ذهاب الطلاب اليهود إلى المدارس الغربية، وهم يرتدون قبعاتهم الدينية أو يعلقون شارات نجمة داود على صدورهم، أو يتلقون دروسهم الخاصة على أيدي الحاخامات في الديانة اليهودية، والتاريخ الصهيوني في قاعات الدرس، التي خصصت أصلا ـ من وجهة النظر الغربية ـ للدراسة العلمانية التي تؤكد على الفصل بين تعاليم الدين وأمور الحياة الدنيا.

● ما الذي يجعل من الإسلام، في تصور هؤلاء الكتاب الغربيين أداة للقمع، وباعثا على الجمود، وعائقا عن التقدم، ومانعا للحريات، بينما تحظى اليهودية بكل أساليب القداسة ورموز الاحترام والتبجيل ؟

إن القضية تكمن في تجزئة المقاييس التي ينظر ـ من خلالها ـ الغربيون للأديان المختلفة، فهناك مقياس خاص بالإسلام يقوم على الانحراف المتعمد، وتؤثر فيه الأهواء الخاصة، ويخضع لكل المسارات الذاتية المنبعثة من رواسب الحملات الصليبية المتزمتة، والدراسات الاستشراقية الجاهلة. وبالمقابل فهناك مقياس آخر للدين اليهودي والديانات الأخرى ـ حتى الوثنية منها ـ يسعى لاسترضاء مشاعر أتباع هذه الديانات، وإشباع رغباتهم الخاصة، بإظهار الميل لهم، والرضا عن شعائرهم وتقاليدهم، وتقبل كل السخافات المقترنة بها، ووصفها بكل سمات الحضارة والرقي والتقدم.

الإسلام في الكتابات الغربية الحديثة

بيـــرنـــارد لـــويـــس (٣)

● بيـرنـارد لويس BERNARD LEWIS هو واحد من أشهر المستشرقين، في العصـر الحـديث، ولا بأس أن نلم بشيء من حياته، قبل استعراض وتحليل الكتـاب الأخير من مؤلفاته التي تخصصت في البحث في القضايا المتعلقة بتاريخ الأمة الإسلامية والعربية.

● تحصل «لويس» الذي ولد في لندن سنة ١٩١٦م. على شهادة «الليسانس»، و «الدكتـوراه» من جامعـة لنـدن، سنـة ١٩٣٦م، كما تحصل على «دبلوم» الدراســات الســاميـة من جامعة باريس سنة ١٩٣٧م، وعمل أستاذا بمعهد الدراســات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، ثم أستاذا بالدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة برنستون[١].

● تخصص «لويس» في تاريـخ الدولة العثمانية، ولذا أصدر كتابه المعروف باسم «ظهـور تركيا الجديدة» كما شملت اهتماماته التاريخ العربي، فأصدر كتابه «العرب في التاريخ»[٢] THE ARABS IN HISTORY ونجده في كتابه هذا يردد فرية استفادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المصادر الدينية التي كانت موجودة في عهده، وخصوصا «اليهودية» وهذا ما يكشف لنا عن تعصب «لويس» ليهـوديتـه، رغم ادعـاء هؤلاء المستشرقين بتجردهم من عواطفهم والتزامهم بالمنهج العلمي.

---

(١) المستشرقون، ط٤، ج٢، ص١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٢) سوف نقوم بعرض لهذا الكتاب في حلقة أخرى من هذه الدراسة ـ إن شاء الله.

● آخر مؤلف صدر للويس هو كتابه المعروف باسم SEMITES AND ANTI SE-MITES في لندن. بالمملكة المتحدة، عام ١٩٨٦م عن دار WEIDEN FELD, NICOLSON.

يذهب «لويس» في كتابه الأخير هذا إلى أن الأقليات اليهودية التي كانت تشكل جزءا من البلاد العربية والإسلامية عوملت ببعض المعايير غير المعتبرة من الناحية السياسية، كما أنها قوبلت في الحياة الاجتماعية بسلوك يمكن وصفه بالانغلاقية والازدراء، ولكن «لويس» يعد هذه المعاملة التي رافقت الوجود اليهودي في المجتمعات الإسلامية والعربية، تختلف عن ذلك النوع من العداء الذي أفرزته المجتمعات الغربية تجاه اليهود، ويحدده «لويس» Anti-Semitic بالعداء الشخصي Personal Hostility والذي تسبب في متاعب طبيعية «جسمانية» وصدامات عنيفة للجانب اليهودي الذي كان يشكل جزءا من المجتمعات الغربية، إلا أن «لويس» يعود فيرى أن موجة عداء السامية بمفهومها الأوروبي، وصلت إلى البلاد العربية في وقت متأخر، في القرن التاسع عشر الميلادي.

ويشير «لويس» إلى أبعاد أخرى في قضية عداء السامية، مبينا ـ من وجهة نظره ـ مظاهرها في المجتمعين العربي والأوروبي، فهو يرى ـ مثلا ـ أن اليهود لم يشكلوا أهمية بالغة في المجتمع الإسلامي، وذلك نابع ـ في تصوره ـ من أن المفكرين الإسلاميين ـ وهم طبقة مؤثرة في المجتمع ـ لم يعيروا اليهود شيئا من الاهتمام، ويضرب مثلا بالعالم المسلم «ابن خلدون» الذي يتكلم عن اليهودية كدين منزل من عند الله بعبارات تدل على الاحترام والإعجاب، بينما يتحدث عن الشعب اليهودي في الحقبة التي عايش أحداثها بشيء من الازدراء من الناحيتين الاجتماعية والسياسية بينما ـ في المقابل ـ نجد المسيحي أو الأوروبي يفكر وعقله ممتلىء بالشخصية اليهودية، التي تشكل خطرا على المجتمع عندما تتاح لها الفرصة التي تمكنها من أسباب التفوق والقوة.

إلا أن هناك ناحية أكثر أهمية من الناحيتين السابقتين اللتين ذكرهما «لويس» بداية في أبعاد التشابه والاختلاف المتصلة بقضية عداء السامية في المجتمعين الأوروبي والعربي، وهذه الناحية ـ كما يشير لويس ـ هي أن اتجاه

عداء السامية في المجتمع الغربي يمكن وصفه بأنه عميق إلى حد يبلغ معه درجة القلق، ومتصل اتصالا وثيقا بالمفاهيم الحضارية، بينما هو في المجتمع الإسلامي سطحي، ولا يحتل إلا موقعا ثانويا من الناحية الحضارية، ولكن المؤلف يتوقع في خاتمة كتابه [١] أن موجة عداء السامية بمفهومها الأوروبي يمكن أن تكتسح العالم الإسلامي، من خلال الصراع القائم بين العرب وإسرائيل في أرض فلسطين.

ولابد لنا من وقفات ناقدة لتحليلات «لويس» المتعلقة بالوجود اليهودي في العالم، وصلة ذلك بما يسمى بموجة عداء السامية.

أولا من ناحية التصور الإسلامي لليهودية، فهو تصور يختلف عن التصور الأسطوري الفوقي اليهودي، فالإله الذي كان يدعو إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ إلى عبادته هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة، لأن دعوة إبراهيم الخليل إلى عبادة الإله الواحد كانت دعوة عامة موجهة إلى جميع السكان الوثنيين في عصره بلا استثناء، الإله الأوحد خالق السموات والأرض وجميع البشر، رب جميع المخلوقات بلا تمييز بين الأقوام [٢] كما يرى المسلمون أنه لا يمكن للتوراة الحقيقية التي جاءت من عند الله ككتاب سماوي يمكن أن تشتمل على التحريف الذي يتصل بسلوك الأنبياء والرسل، فبينما تؤمن التعاليم الإسلامية بعصمة الأنبياء والرسل الذين يجب أن يتخذ الناس من سلوكهم قدوة يقتدون بها نرى التوراة المحرفة تفتري عليهم بأعمال قبيحة تتنافى ومكانتهم الدينية والاجتماعية.

وفي ضوء هذه الحقائق عن التوارة المحرفة يمكن تفسير موقف المفكرين الإسلاميين كابن خلدون، وابن حزم [٣]، من الديانة اليهودية الحقيقية المنزلة

---

(١) ERNEST CELLNER. Prejudial, encounters. The Times Literarysupp Lement. August, 22, 1986, P.903

(٢) الدكتور أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الثانية، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٣) لاحظ «ابن حزم» أن التوراة التي بأيدي اليهود ليس فيها ذكر لنعيم الآخرة أصلا، ولا لجزاء بعد الموت، وهو أمر يدل على مدى التحريف الذي شهدته التوراة على ايدي اليهود.
انظر: محمد ندا: جنايات بني إسرائيل على الدين والمجتمع، ط١، ١٤٠٤هـ، الرياض، ص٢١٣.

من عند الله، والتوراة التي عملت فيها الأيدي اليهودية بالتحريف والتغيير حتى تتواءم مع تطلعات الشعب اليهودي، وأكذوبته الدينية التي شكلت ـ فيما بعد ـ «أساسا للأيديولوجية الصهيونية، بما فيها من وغد يمنح اليهود حقا إلهيا في أرض فلسطين ومن اعتبار الشعب اليهودي شعبا مختارا بموجب ذلك الحق الإلهي، لكي يطأ بأقدامه الحقوق الإنسانية لمن عاشوا، وكدحوا طيلة آلاف السنين فوق أرض فلسطين»[1].

أما من ناحية وضع اليهود في المجتمعات الإسلامية والعربية ـ فإنهم كانوا يعاملون معاملة أهل الذمة، أو أهل الكتاب، وليس من موقف يدل على التزام خلفاء المسلمين بهذا المبدأ أبرز من القصة التي تروى عن موقف الخليفة عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من اليهودي الذي وجده يتسول في شوارع المدينة، حيث علم أن سبب تسوله هو الحصول على المال، لدفع الجزية، فأمر برفع الجزية عنه وتخصيص مرتب له من بيت مال المسلمين. إن هذه القصة ـ بكل أبعادها الإنسانية ـ وغيرها من الحقائق والشواهد لا تجد مكانا لها في كتابات «لويس» عندما يتحدث عن وضع اليهود في المجتمعات الإسلامية والعربية.

ولئن تعرض يهود البلاد العربية لأذى أو تهديد، قبل قيام الدولة الصهيونية، فإنما كان من تدبير الحركات الصهيونية ـ نفسها ـ لتجبرهم على الهجرة إلى أرض فلسطين، كما حدث ليهود العراق في سنة ١٩٥٠م عندما قامت المخابرات الإسرائيلية بإلقاء القنابل عليهم، لتوهمهم أن الخطر يتهددهم في العراق[2].

وإذا كان اليهود تعرضوا لكثير من عمليات الإرهاب والتنكيل في البلاد الأوروبية فإنهم كانوا ـ باعتقاداتهم الخاطئة والمزعومة في نظرية «العِرق» ـ سببا رئيسيا في تلك المواقف الأوروبية المناوئة التي يدفع ثمنها ـ اليوم ـ الشعب الفلسطيني من دم أبنائه ونسائه وأطفاله.

لقد اتهم «هتلر» اليهود في كتاب «كفاحي» بأنهم يريدون تدمير الجنس الأبيض الذي يبغضونه أشد البغض، وذلك بالهبوط به إلى الدرك الأسفل، عن

---

(١) روجيه جارودي: ملف إسرائيل: ط١، ١٤٠٣هـ، دار الشروق، ص٤٧ .

(٢) المصدر السابق، ص١٤٣ .

طريق اختلاط الدم والهجين «فاليهودي يسمم دم غيره بينما يصون دمه»[1].

إلا أن السـلاح الذي تُلَوِّح به الحـركـة الصهيونية - اليوم - وهو مذابح «الهلوكوست» Holocaust ، هو سلاح ابتزازي عمدت من خلال المبالغة فيه إلى نشر الرعب في المجتمعات الأوروبية، فنجد البرلمان الفرنسي - مثلا - يناقش، في دورته، مشروع قانون يقضي بتجريم أي مواطن فرنسي ينكر حدوث مذابح لليهود في أوروبا أو يشك فيها[2]. ويقوم بعض المتعاطفين من أعضاء البرلمان الإنجليـزي مع الحـركة الصهيونية بالبحث عن عدد كبير يتجاوز المائة من مجرمي الحرب النازية الذين اتخذوا بريطانيا مقرا لهم[3] ، في الوقت الذي يقوم فيـه وزيـر الدولة البـريطاني للشؤون التعليمية بمحاولات كبيرة لإجبار لجنة المنـاهـج التـاريخية على اعتماد موضوع انبثاق وأفول الحركة النازية، وما صاحبها من مذابح النازية، كمادة إجبارية يتلقاها أبناء الشعب الإنجليزي[4] .

كمـا أن «سـايمـون روزنثال » Simon Wiesenthal[5] المعروف بصائد النازيين، يطوف العالم الأوروبي في مهمة صهيونية متجددة، غرضها تشويه الحقـائق التـاريخيـة عن بعض الشخصيات الأوروبية المتعاطفة مع قضية الشعب الفلسـطيني، وخصـوصـا شخصيـة الرئيس النمسـاوي الدكتـور «فالدهايم» الذي على الرغم من تبرئته من قبل لجنة رسمية بريطانية[6] إلا أنه

---

(١) المصدر السابق، ص٨ .

(٢) محمد صلاح الدين: القارىء العربي، صحيفة المدينة المنورة، العدد ٨٢٢٩، ٢٣، ربيع الآخر، ١٤١٠هـ.

(٣) Eileen, Macdonald.

124, Nazis, in, Britain, Face, Probe, in, to, War, Crimes.

Observer. News Paper, 22 October. 1989, P, 6,

(٤) Nicholas Wood Minister Puts Holocaust On Syllabus.

The Times News Paper, November 15, 1989.

(٥) قام بإصدار كتابه المعروف باسم: Justic Not, Vengeance «العدالة وليس الثأر» واطلعت على تحليل للكتاب المذكور قام به وزير الخارجية في حكومة الظل البريطانية «جيرالد كوفمان» Gerald Kaufman في صحيفة «الميل» البريطانية تحت عنوان:

Arch, Nazi Hunter's, quest for Justic.

The Mail, On Sundag, October, 15, 1989.

Michael Evans. Waldheim, Report, Denies Cover- Up

(٦) The Times News Paper, October, 18, 1989

لا يزال هدفا لحملات شنيعة تتهمه بعداء السامية، وارتكاب جرائم تاريخية في حق الشعب اليهودي.

وإن كان «لويس» توقع ردة فعل من الشعوب الإسلامية والعربية تتمثل في موجة عداء جديدة، ولكنه لم يبحث في الأسباب الداعية لانبعاث ظاهرة كهذه، إلا أن الذي حدث فعلا بعد انتهاء «لويس» من تأليف كتابه، هو ظهور سلاح جديد أشد وقعا، وأعظم تأثيرا على الكيان الصهيوني من أي شيء آخر ألا وهو سلاح أبناء الأرض المحتلة من الفلسطينيين، ذلك السلاح البدائي الذي استطاع الصمود في وجه أعظم الأسلحة تقنية، وأكثرها فتكا، والذي تزوده بها الشعوب الأوروبية غربيها وشرقيها.

وليس ببعيد كنتيجة للتكتيك الأخرق الذي تستخدمه الحركة الصهيونية في داخل المجتمعات الأوروبية، وهو التذكير بمذابح النازيين، استدرارا للعطف، وصداً لأي تعاطف إنساني مع الشعب الفلسطيني، ليس ببعيد انبثاق موجة عداء جديدة ضد اليهود في الدول الأوروبية التي تتحمل شعوبها ـ عن طريق ما يدفع من الضرائب، كما يحدث في ألمانيا الغربية ـ كثيرا من ضروب العنت والمشقة والتقشف في سبيل استمرارية الكيان الصهيوني، وعدم تضعضعه أو ضعفه.

لقد تجاوزت الحركة الصهيونية كل حدود اللياقة المعروفة، وتنكرت في الوقت نفسه لكل أولئك الذين يمدون لها يد المساعدة والإنقاذ. ولقد آن الأوان لهذه الشعوب المغرر بها، عن طريق حكوماتها، أن تتخذ موقفا طبيعيا تتبصر من خلاله بمواضع الحق والباطل في هذه القضية التي يمارس الصهاينة ـ من خلال ما يتاح لهم من وسائل وسبل ـ كل أنواع الظلم والإرهاب في حق شعب آخر، هو الشعب الفلسطيني الأعزل.

***

توجيه الإعلام بين المجتمعين الغربي والإسلامي

● لابد لنا في بداية هذه الكلمة أن نشير إلى قضية هامة تستحق كثيرا من البحث والمناقشة وهي قضية توجيه الإعلام، وما دام أن الآخر أصبح يشكل بعدا هاما في رؤيتنا الحضارية، فإنه يحسن بنا أن ننظر إلى تعامله مع هذه القضية في ضوء ما يتوفر لنا من معلومات.

● إن القضـايا المتعلقة بمصير الأمة أو معتقدها أو أهدافها الاستراتيجية تحظى في المجتمع الغربي بحصانة قوية، بل تلتقي عند احترامها وعدم تخطي أسسها أو انتهاك منطلقاتها كل التيارات التي تمثل فئات هذا المجتمع وتدافع عن مكتسباته ومصالحه.

ومن شواهد هذا التوجيه الإعلامي الذي يجب أن يخضع لمباركة الحكومة ورضاها الحرص على عدم نشر الكتب التي يمكن أن تؤدي إلى إفشاء الأسرار الخاصة بالأمن الوطني، ولقد أثارت قضية كتاب «صائد الجواسيس» لبيتر رايت» وهو ضابط سابق في جهاز المخابرات البريطاني كثيرا من الأسئلة حول المدى الذي يمكن أن تذهب إليه الحكومة في مراقبة الإعلام ومحاسبته، فحكومة المحافظين لم تتوان في متابعة عدم نشر الكتاب إلى الحد الذي طلبت فيه من المحاكم الكندية إصدار أمر قضائي بتوقيف نشره في كندا، بل في الوقت الذي كان القارىء الأوروبي يعرف أسرار المحاولات التي كانت تقوم بها المخابرات الإسرائيلية والبريطانية في سبيل إسقاط حكومة هارولد ويلسون العمالية في منتصف السبعينات الميلادية بعد أن أدى «ويلسون» دوره المنوط به في دعم الحركة الصهيونية لمدة طويلة من خلال الحركة العمالية ومؤسساتها - في الوقت نفسه كانت الحكومة البريطانية تجرم أي صحيفة تقوم بنشر مقتبسات من كتاب «رايت» وكان قطاع من الرأي العام يشجع الحكومة على هذا

المنحى المتشدد الذي التزمت به تجاه الكتاب ومؤلفه، ولقد فكرت الحكومة في فترة من الفترات أن تصدر قرارا بمنع دخول الكتاب إلى الأراضي البريطانية وقد أشار إلى هذا الوزير اليهودي المختص بالحكومة «ديفيد ينغ».

وعندما قامت في الأشهر الأخيرة المجلة الفرنسية «باري ماتش» بنشر مقتطفات من كتاب يذيع بعض أسرار العلاقات الخاصة في الأسرة البريطانية المالكة، أصدرت الحكومة البريطانية أمرا قضائيا بمنع المجلة الفرنسية من دخول بريطانيا، مما اضطر موزعو المجلة في بريطانيا لقص الصفحات من ثمانية آلاف نسخة ووضع على كل منها عبارة «لأسباب قانونية تم نزع بعض الصفحات» وكثيرة هي الكتب التي لا يجرؤ المواطن البريطاني أو الفرنسي على جلبها معه إلى داخل البلاد لأسباب عديدة ومن بينها الكتاب المعروف «بروتوكولات حكماء صهيون».

● أما الصحف فمع أن المسؤولين فيها يتسامحون في عملية طرح كثير من الأفكار المتعلقة بالقضايا الداخلية أو الخارجية إلا أنه يظل وجود الحدود الدقيقة والفاصلة بين ما هو مقبول ومرفوض أمرا ماثلا في الأذهان عند كل من جهاز التحرير والكُتَّاب أنفسهم، وعندما أطلق الناشر اليهودي «روبرت ماكسويل» إنذاره للقائمين على مؤسسته الصحافية الضخمة Mirror بعدم نشر المعلومات الخاصة بأمن إسرائيل والتي قد تستفيد منها الدول العربية وتستخدمها في مواجهتها ضد الدولة الصهيونية، لم تملك الصحف التابعة لمؤسسته إلا الاستجابة لهذا التوجه الديكتاتوري المتعارض مع كل القيم الحضارية التي ينادي بها المجتمع الغربي في كل المناسبات، ويدعو الآخرين للتمسك بها وعدم التفريط في شأنها.

● وإذا كانت مجموعة «ميرور» البريطانية قد التزمت بتعاليم ناشرها «ماكسويل» التي جاهر بها بعد أن حضر مؤتمرا لرجال الأعمال اليهود الذي دعا إليه الإرهابي إسحاق شامير، فإن القسم الثاني من شارع الصحافة البريطاني الذي تمثله مجموعة «التايمز والصن» التابعة للناشر اليهودي الآخر «روبرت مردوخ» لا تحتاج إلى مثل هذا الإنذار، فهي لاتجرؤ على الذهاب بعيدا عن مناقشة قضية الشرق الأوسط حتى لا تنزلق من حيث لا تشعر في إيضاح

الصورة الحقيقية عن بواعث الصراع وجذوره في هذه المنطقة، وهي بواعث تتصل بتعنت إسرائيل واستبدادها وممارساتها الإرهابية منذ أربعين عاما، بل إنني وجدت من خلال بعض المقالات الافتتاحية لصحيفة «التايمز» محاولات الصحفية المستمرة لتصوير الصراع هناك بين الفلسطينيين والإسرائيليين بأنه مجرد بروز فئات مناهضة لشرعية الحكومة الأساسية كما هو الحال مع الجش الانفصالي الإيرلندي الذي يحاول نبذ الشرعية الإنجليزية بكافة السبل والوسائل، وهو اتجاه يؤكد تأثر المؤسسات الصحافية ليس فقط بوجهة نظر الحكومة تجاه بعض القضايا بل يشتط إلى أبعد من ذلك في فرض أفكار هؤلاء الناشرين الذين يعيشون في المجتمعات الغربية بشخصيات متناقضة وولاء مزدوج.

● إن المؤسسات الإعلامية في الغرب تتلقى كثيرا من التعليمات الخاصة بالتمكين لقضية أو فكرة معينة أو مناوءتها ثم لا تلبث هذه المؤسسات أن تتبنى الأسلوب الذي تراه مناسبا لطرح هذه الفكرة، وهي أساليب تعتمد كثيرا على العرض المشوق والإخراج الجذاب مما يضمن إمكانية اقتناع شرائح عديدة من هذا المجتمع بجدوى تلك الفكرة أو نقيض ذلك من حيث عدم شرعيتها أو صلاحيتها أو حتى أحقية مناقشة جوانبها، بينما يزعم القانون الغربي العام المحافظة على مبدأ تمكين الرأي الآخر من شرح قضيته واعتبار ذلك أمرا مقدسا، لكن هناك فرقا كبيرا بين القول والتطبيق خصوصا عندما تتدخل عوامل أخرى تحدد الموقف الذي يجب أن تلتزم به هذه المؤسسات، والترويج له وترسيخ مفاهيمه، ولهذا فإن مناقشتنا للفرد الغربي حول قضايا معينة يجب ألا ينظر إليه من رؤية تربط بين مواقف هذا الفرد والعوامل الذاتية والممارسات الشخصية له، بل يجب أن يتعدى ذلك لننظر إليه على أنه الموقف الذي انصهر في أتون المؤسسات التي يخضع لتأثيرها ثم قدم له في شكل جيد وجذاب ولهذا فهو يصر على التمسك به وعدم قبول ما يمكن أن يؤدي إلى زعزعته في نفسه أو تبديل إيمانه العميق به.

● ولهذا ألا يحق لنا بعد هذه الإطلالة البسيطة على تركيبة المؤسسات الإعلامية الغربية ودورها في توجيه قضايا مجتمعاتها، ألا يحق لنا أن نجعل من

مبـادئنا وتعاليمنا وخصوصا تلك التي لاتقبل المناقشة ولا تخضـع للمزايدة، ونعني بها التعاليم المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نجعل منها أساسا ينطلق منها إعلامنا العربي والإسلامي في طرح أفكاره وتحديد مطالبه ؟ أن نجعل من تلك التعاليم الروح التي تتخلل جميع اتجاهاتنا الفكـرية والثقافية ؟ وإننا إذا حافظنا على هذه الأسس وبرهنا على التزامنا بمضـامينهـا واحتـرامنـا لرموزها سوف نكون قد صددنا بطريقة تلقائية كل المحاولات الرامية للتشكيك في هذه المنطلقات أو السخرية منها أو التقليل من شأنها وهو ما دأبنا على الشكوى منه لزمن طويل وما علمنا أن العلاج بأيدينا وأن الوقـاية في هذا الجانب لن تكون إلا من صنعنا ووليدة إرادتنا وعزيمتنا فالآخرون لن يقيدوك إذا أردت التحرك والأعداء سوف يضطرون إلى احترامك إذا أثبت لهم احترامك لمبادئك والتزامك بها نهجا وأسلوبا.

* * *

الحضارة الغربية في مذكرات ضحايا الإيدز

● تطارد الشرطة الإيطالية «انجيلو ألان» أستاذ التاريخ - سابقا - في جامعة «تورنتو» الذي أدى إدمانه المخدرات إلى إصابته بمرض الإيدز، وعندما أعلمه الأطباء بأنه لن يعيش بسبب هذا الداء القاتل أكثر من أربعة أو ستة شهور حاول نقل تلك الحقيقة إلى صديقته الفرنسية «ماريان» ولكن بأسلوب درامي أثر على زوجته وأدى إلى إقدامها على حقن نفسها بجرعة من دمه الملوث الذي بدأت آثاره القاتلة تظهر على جسدها وكان ذلك بعد الشهر الثالث من أخذها لتلك الحقنة التي سوف تتسبب في القضاء عليها بعد مدة حددها الأطباء بثمانية عشر شهرا.

لقد أفاقت المرأة الفرنسية على الحقيقة المرة بعد فوات الأوان مما أصابها بنوبات هستيرية تردد فيها عبارات قاسية على الرجل الذي لعب بعواطفها وحملها على التفكير في وسيلة للرحيل معه من هذه الحياة فكانت تلك الفكرة الشيطانية القاتلة.

والأهم من هذا كله في هذه القصة التي نقلتها صحيفة العلم المغربية «٢٩ أغسطس ١٩٩١م» عن «أورينت برس» هي المذكرات التي بدأت الضحية «ماريان» في كتابتها لإحدى دور النشر الباريسية مقابل خمسة ملايين فرنك فرنسي «ما يقارب المليون دولار» والذي تبرعت به لمؤسسة خاصة تتولى تنظيم حملة إعلامية لمكافحة الإيدز والجسور المؤدية إليه من المخدرات إلى العلاقات الشاذة وغيرها من الانحرافات، ففي هذه المذكرات أو القصة المأساوية التي اختارت لها الكاتبة عنوانا مثيرا هو «لحظة الخطأ الأعظم» لا تتحدث فقط عن مراحل العلاقة الآثمة بينها وبين مدمن المخدرات «انجيلو» وما أدت إليه تلك العلاقة التي نشأت خارج إطار القانون الإلهي والطبيعي في هذه الحياة، ولكنها تتحدث عن جذور انتشار مرض الإيدز في العالم الغربي وتحدده

دون مواربة في انحراف الحضارة الغربية عن الطريق السوي وتركيزها على النواحي المادية فقط والتي تسببت في انتشار مفاهيم الجبروت والعظمة في المجتمع الأوروبي وتغلغلها بالتالي في نفسية الفرد الغربي الذي بدأ ميالا إلى الاعتقاد بأنه سيد الكون والمتصرف الوحيد فيه فكان لابد من عقاب إلهي يذكره بحقيقة وجوده ويحسسه بمدى ضعفه وعدم تمكنه من دفع الشرور عن نفسه حتى وإن حاز كل أسباب التكنولوجيا وتوفرت بين يديه كل منجزات هذه الحضارة المادية. تقول مخطوطة «ماريان» التي تم نشر مقتطفات منها «الآن وأكثر من أي وقت مضى أصبحت أؤمن بمبدأ التوازن، والذي هو السيد المطلق للطبيعة ولكل الوجود البشري، لقد أعمت التكنولوجيا أبصارنا، نحن ـ ناس الغرب ـ وترنحنا بنشوة العظمة والجبروت والتفوق على باقي ناس الكرة الأرضية، لقد أخلينا بمبدأ التوازن فجاء عقاب الإيدز سيفا كونيا ليضربنا دون غيرنا وليظهر حقارة غرورنا وأكذوبة حضارتنا وتفوقنا نحن ناس الغرب كائنات تافهة نزدري الآخرين فيما الأحرى بنا أن نزدري أنفسنا أولا قبل أن يزدرينا الآخرون.

وعندما حاول الطبيب الذي يشرف على علاجها الدكتور «شيفرون» أن يخفف عن نفسها وقع هذه المأساة التي كانت من صنع يدها وبمحض إرادتها، فذكر لها أن أبحاثا جارية على علاج الإيدز في الولايات المتحدة قد تكلل بالنجاح في غضون ستة شهور من الآن، كان ردها حول هذا الموضوع هذه العبارات التي يجدر بكل إنسان أن يقف عندها لأنها صادرة عن تجربة حية وواقع معاش، وهي تمثل ـ في الوقت نفسه ـ شهادة الإنسان الغربي على حضارته ونقده المتجرد لها، وهي شهادة يستحيل دفعها بالمبررات العنصرية أو المكونات الحضارية الخاصة التي تحكم رؤية الآخرين لهذه الحضارة أو تسعى للتقليل من شأنها، تقول كلمات الرد الذي دونته «ماريان» إزاء الوعود الطبيعية لعلاج الإيدز: «أؤمن الآن بما أصبحت أسميه رسالة «الإيدز» رسالة كونية مسلطة علينا لإنقاذنا من وحول المفاسد والموبقات التي نتخبط فيها منذ منتصف القرن الماضي، والتي بلغنا ذروتها على عتبة نهاية هذا القرن العشرين البشع».

الباب السادس

الحفاظ على الهوية

حـول قضية الهـوية الحضـاريـة

● استـطاعت طائفـة «السيخ» التي تشكل حوالي ٢٥٠,٠٠٠ فرد من أفراد المجتمع الكندي أن تنتزع قرارا من المؤسسة الملكية الكندية للبوليس يسمح لأفراد هذه الطائفة الذين يعملون في الجهاز البوليسي بارتداء العمائم التقليدية والاحتفاظ بلحاهم المتميزة حيث يشكل ذلك كله جزءا من تعاليمهم الدينية التي لا يمكنهم التفريط فيها أو ممالاة الآخرين فيما يتصل بالقضايا المتصلة بها.

(The Daily Mail, May 15, 1991)

ولعله لم يكن من السهل صدور قرار مثل هذا يمكّن الفرد من هذه الطائفة بالتميز دون الآخرين الذين يلزمهم نظام هذا الجهاز بارتداء القبعات الخاصة والتي تمثل هي الأخرى تقليدا كنديا خالصا، ولكن إصرار الطائفة السيخية جعلها تقاوم لأكثر من عامين كاملين في سبيل الحفاظ على جزء هام من هويتها الشخصيـة وتقـاليـدها الدينية الموروثة وهذه ليست المرة الأولى التي تقف الطوائف السيخية من تقاليدها هذا الموقف الذي يدل على تخوفها من الذوبان في المجتمعـات الغـربيـة التي تعيش فيهـا ولكنها سبقتها إلى ذلك الطائفة السيخيـة في بريـطانيـا، وهي في هذا الإصرار العجيب على الحصول على حقـوقها التي يكفلها لها النظام الغربي تتماثل مع الطوائف اليهودية التي لا ترضـخ أبـدا لأي ضغوط ترى فيها مساسا بشخصيتها القومية أو تعاليمها الدينية، ولا يقتصر ذلك على المسائل التعبدية أو الدروس الدينية أو شعائر الذبـح والختـان والزواج، ولكنـه يشمـل أيضا المسائل الشكلية مثل ارتداء القبعات اليهودية المتميزة، وإسبال الشعر بطريقة خاصة تمكن الفئات الأخرى في المجتمـع الغـربي من تمييـز اليهودي من غيره. ومع أن جزءا كبيرا من الجـاليات الإسلامية وخصوصا ـ غير العربية ـ التي تعيش في المجتمعات الغربية تحاول التمسك بهويتها الإسلامية والمحافظة على أداء شعائرها الدينية

والاحتراز من كل ما يمكن أن يؤدي بأجيالها الناشئة إلى التأثر بمعطيات الحضارة السلبية والتركيز على الاستفادة من المعطيات الإيجابية، إلا أنه تبقى ملاحظة هامة في هذا السياق وهي أن بعضا من أبناء المجتمعات العربية والإسلامية ينسون كل ما يتصل بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم إذا ما ذهبوا إلى تلك المجتمعات للدراسة أو النزهة، ويظنون أنه بمجاراة الغربيين في كل شيء يمكنهم أن يحوزوا على إعجاب ورضى تلك المجتمعات بينما هم في حقيقة الأمر يعرضون شخصياتهم للازدراء والاستخفاف حتى وإن لم يعبر لهم الغربيون بصراحة عن مثل هذا الشعور، كما أن هذا البعض إذا عاد إلى بلاده يحاول أن يدافع متحمسا عن كل ما يتصل بالحضارة الغربية سواء كان ذلك في الجانب الفكري والمتمثل في الحماسة لبعض المناهج والمذاهب الثقافية أو التربوية التي لا تتواءم مع منطلقاتنا الدينية ومكوناتنا الحضارية، أو في الجانب السلوكي الذي يسعى لتقليد الغربي في كل شيء حتى في ما يتصل بارتداء الملابس وطريقة التحدث وأساليب التعامل في المنزل وخارجه، وهو أمر بقدر ما يثير الشفقة والحزن، يضع أسئلة كبيرة حول مدى تمثل هذه النخبة لتاريخها وارتباطها بمجتمعاتها وولائها لأمتها.

***

بين الولاء للهوية الثقافية والتنصل منها

توفي ـ في شهر يوليو من عام ١٩٩١م ـ الروائي اليهودي الأصل، والأمريكي الثقافة «إسحاق ببيتفيش سنجر»، ولقد سبق لهذا الكاتب الذي يُدعىٰ «بخكواتي أرض اليديش» أن حصل على جائزة «نوبل» للآداب سنة ١٩٧٨م وهو في سن الرابعة والسبعين.

ولسنا ـ هنا ـ في مجال الحديث عن حياة هذا الكاتب، ولكن نود التركيز على الجوانب الفكرية والثقافية، التي ظل «سنجر» وفيا لها طوال حياته، فهو من ناحية شكل ـ مع مجموعة من الكتاب اليهود ـ دعائم ثقافة «الفيتو اليهودي» الذي كان يتنفس حياته، عن طريق «اليدشية»، وهي اللغة اليهودية القديمة، والمتكونة ـ في الأصل ـ من عناصر ألمانية وعبرية وسلافية.

● عن طريق هذه اللغة عمل «إسحاق سنجر» وأخوه «يهوشوا» ورفاقهما من الكتاب اليهود، على المحافظة على الثقافة اليهودية، وتقديمها للمجتمعات اليهودية، قبل أن تنقض على الأرض المسلمة والعربية «فلسطين» وتقيم عليها ذلك الكيان العنصري.

ولقد علل «سنجر» اختياره مع أخيه الكتابة باللغة اليدشية بأنها «اللغة التي نتكلمها في مطبخ أمي» فهي ـ من وجهة نظر الكاتب ـ اللغة المحملة بالذكريات والتقاليد والأساطير، كما ذكرت ذلك صحيفة «اللوموند» الفرنسية، وقام ملحق صحيفة «العلم» الثقافي (٢٤ أغسطس ١٩٩١م) بترجمته عنها.

ويضاف إلى هذا الولاء الثقافي للغة اليدشية، التي كتب بها، من قبل عددا من رواياته الكاتب اليهودي المعروف «فرانز كافكا» Franz-Kafka فإن عالم «سنجر» الروائي يركز ـ بالدرجة الأولى ـ على المفاهيم اليهودية الدينية، والواقع الصهيوني المعاش، سواء اتصل الأمر بالمرأة الروسية التي اعتنقت اليهودية «العبد»، أو الفتاة اليهودية، التي تكثلكت (نسبة إلى الكاثوليكية) عن

حب «تـاج الريش» أو بالسارق التائب «ساحر لوبلين» وهو في هذا التخييل الفـانتازي ـ لا يخرج عن النمط الكتابي عند جميع الروائيين اليهود، الذين عاشوا في المجتمعات الغربية، قبل نشوء الكيان الصهيوني، مثل: بينجامين ديزرائيلي «Benjamin-Disraeli» (١٨٠٤ ـ ١٨٨١م) أو فرانز كافكا «Franz-Kafka». وبشروا ـ في كتاباتهم الروائية ـ بميلاد هذا الكيان، أو أولئك الذين عاشوا بعد نشوء هذا الكيان، وظلوا متعصبين للغتهم الأصلية اليدشية، ولثقافتهم اليهودية، ولم تستطع الحضارة الغربية (لغة، وثقافة) أن تذيبهم في بوتقتهـا، أو تنال من تميزهم الفكري، وخصوصياتهم الثقافية، مما تدل عليه أعمـال الشاعر اليهودي السوفييتي «جوزيف برودسكي» (Joseph Brodsky) الفـائز بجائزة «نوبل» للآدب لعام ١٩٨٨م الذي كان من حيثيات منحه هذه الجائزة: عدم فقدانه لسماته الشخصية في الفكر واللغة، والشكل الإبداعي أيضا.

فعلى الرغم من إجادته للغة الإنجليزية فعملية الإبداع عنده لا تتم إلا في إطار من لغته الأصلية، وفكره اليهودي.

● إن كثيرا من الكتاب العرب الذين عاشوا في المجتمعات الغربية، قد تخلوا ـ طواعيـة ـ عن لغتهم العربية، بينما ظلوا محسوبين على فكرنا وثقافتنا، وفي الوقت ذاته أناطوا بأنفسهم دورا مشبوها، وهو النقل الآلي للجوانب السلبية في المجتمع العربي، وتعميق أبعاد الصورة المترسخة في الفكر الغربي عن الفرد العربي، وهي صورة ـ بلا شك ـ غير مشرقة، وعالم مليء بالتناقضات والسلوك غير الحضاري.

وخير من تطوع لحمل هذه الرسالة السلبية للغرب عدد من الكتاب، الذين اختـاروا اللغـة الفرنسية وسيلة تمكنهم من نقل هذه الإبداعات للفكر الآخر وثقافته، وهي إبداعات كثيرا ما هللت لها الصحافة العربية، وملاحقها الثقافية والأدبية، وكأنها سبق حضاري عظيم، ولابد أن تقفز ـ إلى أذهاننا ـ في هذا السياق أسماء عديدة، مثل: الطاهر بن جلون، والطاهر وطّار، ومحمد شكري، ورشيد بوجدرة.

● إن الكاتب العربي الذي قد تفسح له الصحافة الغربية مكانا في عالمها، وترحب بعض دور النشر العالمية بتقديم إنتاجه إلى القارىء الغربي، وتخصص مؤسسات معينة جوائز هي - في العرف الغربي - من الدرجة الثانية أو الثالثة أو الأخيرة، لا تفعل ذلك احتفاء بإبداع عربي يعمل على مد الجسور بين الثقافتين العربية والغربية، ويضع الثقافة العربية وفكرها في المكان اللائق بها، كثقافة ساهمت في صنع المنجزات الحضارية العالمية، وفكر كان له دور فاعل في الربط بين الثقافات المتعددة، كما تعدى ذلك الدور إلى الإضافة المتميزة، والإبداع الذاتي.

ولو كان لهذا الإبداع المحتفى به من قيمة حقيقية لاستطاع أن يغير - ولو إلى درجة معينة - بعضا من ذلك التصور السلبي، والنظرة البغيضة تجاه كل ما هو عربي ومسلم!.

بينما نجد - في المقابل - أن الكتاب اليهود، الذين لم يتخلوا عن لغتهم، مثل «إسحاق سنجر» الذي أتينا على شيء من سيرته الأدبية، رفعوا - في كتاباتهم - من شأن الفرد اليهودي، وجعلوه في الموضع الذي لا ترتقي إليه الشبهات، والمكانة السامية المرتبطة، بكل ما هو حضاري ومقبول من وجهة النظرة الغربية.

ولعل هذا هو السر الحقيقي وراء تقديس الفرد الغربي للشخصية اليهودية، وتعاطفها العميق مع قضاياها، وتعضيدها لها في كل مطالبها وأهدافها، التي لا تتوانى المؤسسات الرسمية الغربية في تحقيقها لها، معتبرة تلك المطالب هدفا من أهداف المجتمع الغربي نفسه، وذلك لتداخل الأهداف الغربية واليهودية في كل واحد لا يتجزأ، ونظرة شاملة تتوحد من خلال منظور حضاري، استطاع تشكيله الكتّاب اليهود، بتواصلهم مع ثقافتهم الأصلية، وكرسوا - في سبيل تحقيقه - كل مواهبهم، وقدراتهم الإبداعية.

***

المفهوم الحضاري لقضية الأصالة والمعاصرة

● يكـون للكلمـة المقـدرة الفعالة على كسب أرضية صلبة، وللحوار التأثير الطبيعي والتـوجيه الرائد، عندما يقترنان بالتأمل الواعي والمناقشة المقنعة، وميـدان هذا التـأمل وتلك المناقشة هو ما يسمى في ميدان الفكر «بالتراث والتجديد»، أو لعله أخذ اسما آخرا هو «الأصالة والمعاصرة».

ولعل التأمل يقودنا لنرى أن ميدان هذه القضية واسع، حتى ليشمل نواحي عدة، يصعب فصـل بعضها عن بعض وهذه النواحي يتصل بعضها بأمورنا الحياتية التي لا نوليها ـ في كثير من الأحيان ـ ما تستحقه من نظر وتمعن، ومنهـا ما هو فكـري نراه، في هذا الحوار اللامنتهي، بين ما يسمى بالقديم والجديد، في ميدان العلوم الإنسانية، بمختلف فنونها.

والفصــل في هذه النواحي لا يمكن أن تُوَفِّره مقالة كهذه، وإن كان لهذه المقالة من هدف فهو مناوشة بدائية للقضية، نتمكن ـ بعدها ـ من توسيع دائرة نقاش هادف يوصل الأسس، ويرسم الأهداف، لأن أهمية هذا النقاش تنبثق من أن الأمة الإسلامية والعربية تسعى ـ في انطلاقتها الحاضرة ـ لتثبيت معالمها الأساسية التي لا تقبل مساومة أو تخاذلا، كما تتطلع ـ في الوقت نفسه ـ إلى إغناء هذه المعالم بالتجارب العلمية الرائدة التي سبقتها فيها أمم أخرى.

وهذا السبق أمر طبيعي، يدركه كل من قرن جهده بالعزم والإخلاص على تحصيله، ويتوفر عليه كل من استخدم القدرات العقلية الكامنة في نفسه، في سبر أغوار هذه العوالم الطبيعية الممتدة، والتي أحكمت صنعها القدرة الربَّانية الخالقة، وقلدت هذا الإنسان ـ في حدود قدرته ـ أمانة البحث عنها، والاستفادة منها، في آن واحد.

● ولعل في الرجوع إلى ماضي حضارتنا الإسلامية نجد دليلا واضحا، وأثرا ملموسا، في أن الدعوة العالمية الإسلامية فتحت آفاقا رحبة أمام أولئك الرواد

الأوائل، فكان لقاؤنا بالشعوب الإسلامية الأخرى هو لقاء ـ في الوقت نفسه ـ بالحضارات الأخرى.

واستطاعت القاعدة الإسلامية السمحة ـ المقترنة بوعي وانطلاقة روادها ـ استخلاص ما هو قوي في ذاته ومتلائم ـ في الوقت نفسه ـ مع هذه القاعدة الراسخة، فكانت التجربة التي أضافت عنصر القوة، ونأت عن عنصر الضعف والغرابة، ولم نشعر ـ ونحن نقرأ إبداعات رائدي الحضارة الإسلامية ـ في تلك الفترة، إلا أنهم جميعا يمثلون قاعدة واحدة متكاملة، نسقها ذلك العطاء المتجدد في دين الإسلام المجيد.

ولعل الخطأ، كل الخطأ، في أن يتسلل إلينا التفكير القائل بأن انطلاقة الإسلام كانت مرحلة واحدة قطعناها في تاريخ متعدد المراحل، حتى إذا أتينا لدراسة متعمقة، واعية نجد أن الإسلام كان الانطلاقة الحقيقية لإبداعات الأمة العربية، ومشاركتها في البناء الحضاري المتكامل.

ولقاؤنا ـ في الوقت نفسه ـ بشعوب أخرى كان الإسلام إنقاذا لها مما تردت فيه، وصهرا لقدراتها في البوتقة الإسلامية، فضمن القاعدة الإسلامية كان اللقاء التاريخي، وفي رحابها الشاملة السمحة، تهيأت الظروف لتلك القدرات جميعا، في أن تتمكن من المشاركة والإبداع.

تلك المشاركة وذلك الإبداع هو ما نرى آثاره في حضارتنا الإسلامية، في «الأندلس» التي كانت مركزا حضاريا، تمكنت الأمة «العربية» من خلال إشعاعاته، من إعادة بنائها الحضاري، وإن الدرس الذي يجب أن نعيه ـ إن لم نكن وعيناه بعد ـ أن حضارتنا الإسلامية توقفت عن العطاء، في ذلك المركز الحضاري، بسبب ما تولد من عصبيات، ووئد وهجها المتوقد تحت تأثير الأهواء الذاتية التي نهت عن الانحدار فيها تعاليم الدين القويم.

● إن المشاركة في البناء الحضاري المعاصر ـ علميا وفكريا ـ لن تكون بنبذ تعاليم الإسلام، أو التقليل من الدور الذي أداه تراثه الفعال في تكوين الأمة التي مكنت لنا الوقوف ـ بعزة وكرامة ـ بين أمم الأرض، وسيظل التراث المورد الأصيل الذي نعود إليه كلما تعددت بنا السبل، وتفرقت بنا المناهج التي رفضتها، وسوف ترفضها طبيعة تكويننا التاريخي.

كما أن المشاركة الحضارية تتطلب مع هذه القاعدة الراسخة انفتاحا، لا يفقد الأصالة، وأخذا لا يتعارض مع التشريع، وتفهما لشعوب الأمم الأخرى، فالانغلاق الفكري يؤدي - في الوقت نفسه - بالأمة إلى الانكماش، وفقدان الدور الذي يجب أن تؤديه.

● إن الانغلاق والتعصب لم ولن يكونا معولي بناء في تاريخ الأمة التي فتحت ذراعيها في يوم من الأيام لشعوب الأرض، ويجب أن تظل كذلك، وهذا أسمى ما تتطلع إليه أمة تردد في ثنايا كتابها المجيد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات آية ١٣].

* * *

لماذا ومتى يهتم الأوروبيون بتراثنا ؟

● إن الكلمة الواعية - بلا شك - هي التي تعمل على إيضاح العلاقة بين أدب الأمة وفكرها: فالأدب - في كل العصور، وعند جميع الأمم - هو تعبير عن هوية - أي أمة - ومنطلقاتها الحضارية، وإرثها التاريخي؛ ولهذا كان اهتمام الغربيين كبيرا بالتراث العربي القديم؛ لأنه كان تعبيرا حقيقيا عن هويتها الحضارية.

ولم يقف اهتمام الغربيين بترجمة تراثنا الذي أدركوا قوته العلمية المنبثقة من تَمَيزه بسمات لا يشترك معها فيه تراث الأمم الأخرى. بل وجدوا فيه مجالا للاستفادة، وهو ما تعبر عنه الدراسات المقارنة بعملية التأثر ولهذا فليس من المستغرب أن نجد استهجانا من مفكري الغرب وأدبائه لذلك النوع من أدبنا الذي وصفه الأستاذ الفاضل محمد صلاح الدين «بأنه غريب بين أهله، مبتور الصلة بمجتمعه، لا يمثل من قريب أو بعيد ضمير الأمة، ولا وجدان حضارته وثقافته».

● بل إن الأمر بلغ بأحدهم وهو الأديب الإيطالي «إيجانز يوسيلوني» أن يقدم النصيحة للأدباء العرب في «مؤتمر الشعر العربي الحديث»، الذي انعقد في أوائل الستينات قائلا: «أتمنى أن أقرأ شعركم عربيا، خالصا؛ لأنه إنما يأخذ مكانته بين الآداب العالمية بتفرده وأصالته».

وهذا الرأي يتشابه مع رأى الكاتب الإيطالي المعروف «البرتومورافيا» الذي حضـر «معـرض الكتاب» الأخير بالقاهرة، وسئل عما يقرأ من الأدب العربي فأجاب قائلا: «لقد قرأت الأدب العربي القديم الكلاسيكي، قرأت منه الشعر، وقصص «ألف ليلة وليلة»، وكذلك قرأت القرآن الكريم، وأرى: أن الأدب الإيطالي يدين بالكثير للأدب العربي القديم، فأعمال «بوكاتشيو» هي نتاج مباشر لأدب «ألف ليلة وليلة» والأدب العربي القديم.

● وبين يدي بحث كتبـه أحـد المختصين في الأدب العـربي من الأساتذة

الإنجليـز وهو البروفسور «أديموند بوزورث» رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر، وعنوان البحث هو «تأثير الأدب العربي في الأدب الإنجليزي».

ويبرهن «بوزورث» في بحثه هذا على أن الأديب الإنجليزي المشهور في القرن الرابع عشر الميلادي (GEOFREY CHAUCER) «جيفري تشوسر»، قد تأثر ـ عن طريق البلاد الأوروبية الأكثر احتكاكا بالثقافة الإسلامية ـ ببعض القصص العربية: حيث يظهر ذلك جليا في عمله الأدبي المعروف باسم (SQUIERES TALE) قصة سيد كما يؤكد «بوزورث» ويشاركه الرأي بعض النقاد الأوروبيين مثـل (CORBETT) «كوربيت» إن العمل الذي حمل «تشوسر» إلى أفـاق الشهـرة الأدبية، والمعروف باسم (CONTER BURY TALES) «قصص كانتر بيرى»، إنما هو نتيجة لقراءاته باللغة اللاتينية للقصص العربي: الذي كان تأثيره مباشرا في الأعمال الإيطالية المشهورة في القرون الوسطى: مثل مجموعة (BOCCA CCIO) «بوكاتشيو» القصصية، والمعروفة باسم «ديكاميرون» (DE-CAMERONE) الأيام العشرة.

● إن نقطة الضعف التي يجدها الغرب ـ اليوم ـ في أدبنا، هي ترديدنا لبعض نظرياته في الأدب، بعد لفظه لها بعشرات السنين، ثم هو ترديد لا استيعاب ولا تمثل فيه، أما تلك الأعمال الأدبية التي تنتسب إلى العالم الأفريقي، أو دول أمـريكا اللاتينية، وحظيت باهتمام الغرب، فاهتمامه بها نابع من كونها تعبيرا صادقا للأبعاد الحضارية لتلك الأمم.

ولعل هذا ما يدفع الأدباء اليهود ـ في أي قطر يعيشون فيه ـ إلى الكتابة بلغتهم الفطرية، ثم هم ـ دوما ـ يعبرون بكل وضوح عن افتخارهم بذلك الرصيد الحضاري، والإرث الثقافي للأمة اليهودية، مع أنهم أقرب الأمم للتراث الغربي في فكره وأدبه، ولكنهم أبعد ما يكونون عن قراءته ثم تقيؤه، كما يفعل البعض ـ اليوم ـ للأسف الشديد، في عالمنا العربي والإسلامي.

***

نحو رؤية أشمل لمناهج الأدب الغربي

لقد تعرضت في موضوعات سابقة إلى ضرورة مناقشة سبل فهم المذاهب الأدبية والفنية في سياقها الحضاري، وإن هذا الفهم سوف يساعدنا على رؤية تلك المذاهب في إطار من الموضوعية والعقلانية التي تحتاجها الأمم ـ جميعها ـ عند انطلاقها في ميادين البناء الحضاري والفكري، يدفعها إلى ذلك شعورها بالرغبة في اللحاق بالأمم الأخرى التي سبقتها في تلك الميادين ويعد من الشذوذ والنزق أن تتجاهل أمة كالأمة الإسلامية كل موروثها الحضاري لتتعلق بمذاهب ظهرت في الوجود استجابة لبواعث تخص مجتمعات تختلف في تكوينها الذاتي ورؤيتها المادية والروحية لهذا العالم الذي نعيش فيه، كما أن الانغلاق على النفس والتوجه نحو الدائرة الضيقة التي تتمحور حولها نشاطات الأمة أمر يبعدنا عن معايشة الواقع، والنظر في الحلول العملية التي تمكننا من التعامل مع الآخر الذي يتباين عنا في منطلقاته وتقاليده، وإن هذه التعامل الواعي والانفتاح المنضبط لن يفقد الأمة خصوصياتها، بل هو قادر على إعطائها ما تفتقر إليه في صراعها الحضاري من إيمان وثقة كما أنه يولد فيها القدرة على الصمود والتحدي.

إلا أن الأمر ـ للأسف الشديد ـ يختلف عند بعض الذين انتدبوا أنفسهم لترجمة أو تطبيق تلك النظريات والمذاهب الغربية، فهم ينظرون إليها على أنها كفيلة بحل كل مشاكلنا وقادرة على دفعنا في جميع ميادين العمل الحضاري، وليس في حقول الأدب والفن وحدها، فلقد اطلعت أخيرا على حوار أجرته صحيفة الحياة «الثلاثاء ٢٧ جمادى الأولى ١٤١٢هـ» مع واحد من أشد المتحمسين لهذه التقليعات وتلك المذاهب، فكان مما قاله في هذا الحوار وهو الجزء الذي أجاب به على سؤال وُجِّه إليه حول «نظريته التطبيقية في الأدب» ـ بالطبع هي نظرية غربية المنشأ وإسنادها إليه هنا من باب المجاز ـ لقد قال هذا المُنَظِّر: «أعتقد أننا في ثقافتنا العربية الراهنة في حاجة إلى تأسيس

فكري فلسفي ونظري يساعدنا في تنظيم نظرتنا إلى أنفسنا وإلى العالم من حولنا، هذا التأسيس لا يخص الأدب وحده، بل يشمل كافة مناحي حياتنا» وبالمناسبة فصاحب القول كان يتحدث عن النظرية «البنيوية» وما بعد البنيوية، وإنك لتحس وهو يتحدث عن هذا المذهب الغربي وكأنه من بنات أفكاره الخاصة أو هو وليد تصوره الذاتي ونشاطه الذهني المنفرد، ولو أن الأمر اقتصر على تطبيق ما أسماه بنظريته الأدبية على نصوص أدبية لوجدنا لقوله سبيلا، وانتحلنا له عذرا في تعصبه لهذا المذهب، على الرغم من أن ناقدا غربياً مشهورا هو «جورج واتسون» George Watson قد أقر بموت البنيوية في معقلها وذلك في الفصل الذي عقده خاصة لدراستها في كتابه المعروف «الفكر الأدبي المعاصر» Modern Literary Thought وقد قال «واتسون» في هذا الشأن ما نصه: «ليس النقد الإنجليزي ـ الأمريكي مستعمرة من مستعمرات باريس، ولذلك لم يتحول الكثيرون من نقاد العالم المتحدث بالإنجليزية إلى (البنيوية) في الخمسينيات والستينيات على حين أن أولئك الذين اعتنقوا البنيوية لم ينتجوا أكثر من مؤلفات قدموا فيها أفكار أساتذتهم في باريس، وعلى الرغم من أن البنيوية هي الآن مدرسة ميتة لا تظهر إلا في هيئة أشباح لنظرية، فإن بعض هذه الأشباح لا تزال تتردد على التراث النقدي بشدة تستحق المناقشة. وهي غالبا تقلل من شأن عقلانية الإنسان».

إنني أجدني متفقا مع «واطسون» في رؤيته الموضوعية تجاه ذلك المذهب الذي يريد البعض ما وسعه الجهد وواتته الفرصة في أدلجة حياتنا ضمن إطاره وحصرها في مفاهيمه الشكلية، وإن كان هذا المفكر الأوروبي يرى أن البنيوية في صورتها الجامدة تقلل من عقلانية الإنسان، فكيف به لو علم أن بعضا ممن تنقصهم الدراية بتراث الأمم الأخرى، ويفتقرون إلى الحس الحضاري الذي ينفذ إلى أعماق الأشياء ولا يكتفي بظواهرها وأشكالها الخارجية، يطلبون منا علانية أن نترك كل ما يدخل ضمن خصائصنا الذاتية وموروثنا الثقافي لنرتدي زيا بلي عند أهله، ونتعلق بمذاهب تخطاها الزمن، وإن هذه المطالبة في حد ذاتها لا تقلل فقط من العقلانية ولكنها تؤدي إلى أمر أشد هَوْلاً وأعظم خطرا ألا وهو وأد ثقافتنا المرتبطة ارتباطا وثيقا بالماضي الذي عاشه أسلافنا أو الحاضر الذي نعايشه أو المستقبل الذي نتطلع إلى استمراريته.

واطسون وموت البنيوية

تعرضنا في كتابات نقدية سابقة لمقولة الناقد الإنجليزي «جورج واطسون» (George Watson) أن البنيوية تقلل من شأن عقلانية الإنسان، وقارنا هذا النقد الموضوعي لهذا المذهب الأدبي الذي اندثر في الغرب، وتلك المحاولات التي يتزعمها بعض المتحمسين ـ من غير دراية ـ لهذا المذهب وسواه، وتتركز محاولاتهم في فرض البنيوية على مجتمعاتهم التي يعيشون فيها متطلعين إلى أن تكون البنيوية أسلوبا للحياة ومنهجا للتفكير، وإذا كان الغربيون ـ وهم مَنْ نشأت هذه المذاهب بين ظهرانيهم ـ لا يجعلون لها من الأهمية والقداسة ما يجعله لها بعض أبناء الأمة الإسلامية والعربية، فعندئذ تتبين لنا الشجاعة التي يتمتع بها بعض المنظرين الغربيين في الانتقاص من قدر ما يرون فساده من نظريات ومذاهب «كما حدث» مثلا في نظرية «دارون»، كما تتبين لنا القدرة على مكاشفة الذات بالأخطاء التي يكون في استمراريتها ضرر بالأمة والمجتمع الذي ينتسبون إليه، وإن مقارنة ما يتمتع به بعض هؤلاء الغربيين من قدرة على تحليل واقعهم الفكري والأدبي تحليلا موضوعيا بما تلوكه ألسنة بعض المتحمسين من أبناء الأمة العربية للمذاهب الغربية عن جدوى هذه النظريات والتقليعات الأدبية والفنية، وعن قدرتها الأسطورية على إنقاذنا حسب تصور هؤلاء المتحمسين من تخلفنا الفكري. إن تلك المقارنة تدل دلالة واضحة على فشل هؤلاء المتحمسين في قراءة الواقعين الغربي والعربي قراءة حضارية واعية وعدم تمكنهم من النفاذ من الشكل الظاهري لهذه النظريات، التي أدّت إلى بروزها تراكمات حضارية واجتماعية وفكرية في المجتمع الغربي نفسه، وكانت الباعث الحقيقي لظهور نشوء هذه النظريات ثم اندثارها، ولا يخرج صنيع هؤلاء عن صنيع بعض منظري الحركات الشيوعية والماركسية في العالم الثالث الذين كانت إجابتهم الوحيدة عند مواجهتهم بالفشل الذريع الذي منيت به نظريات «ماركس» ودعاوي «ستالين» و «لينين»، تنحصر في أن مجتمعاتهم لم

تزل في حاجة إلى تلك النظريات رغم سقوطها في بيئتها الأصلية التي انبثقت منها، وذلك لأننا لا نزال نسمع دعاوى هذا البعض بأن فشل البنيوية في مقاربة الواقع الفكري الأوروبي لا يعني فشلها في مقاربة واقعنا، وتصور كهذا يحمل تناقضا عجيبا يدعو الأوروبيين أنفسهم للدهشة والاستغراب، ويحملهم على النظر إلينا بكثير من الاستخفاف والازدراء.

● إن مقولة نشوء المذاهب الغربية المتعددة إنما كان نتيجة للفراغ الروحي وافتقاد الفرد الغربي للمفاهيم الإيمانية التي تملأ عليه حياته. وتقدم له تفسيرا مُرْضِيا لكل ما يدور في ذهنه من تساؤلات.. هذه المقولة ليست عربية المنشأ والهوية، وإنما تعود إلى المجتمع الغربي نفسه، فكثير من المفكرين الأوروبيين سجلوا شهاداتهم حول هذا الموضوع وقالوا بهذا التفسير الذي يرفضه أنصاف المثقفين في عالمنا، وكان من بين هؤلاء المفكرين الغربيين «واطسون» الذي قال في كتابه المعروف «الفكر الأدبي المعاصر» (Modern, Literary, Thought) ومع ذلك فمزاعم البنيوية عظيمة جدا إذا كانت تدعي في أوج ازدهارها ـ أي في أواخر الخمسينات وما تلاها مباشرة من سنوات ـ أنها تفسر جميع الحقائق البشرية، أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء، لقد كان لفرويد، في العشرينيات ولماركس في الثلاثينيات، ما يناظر هذه الجاذبية بسبب تقديمهما حلا فكريا شاملا لجميع المسائل، ثم جاءت بعد ذلك أفكار شمولية أخرى مماثلة: «أفكار يونج» و «تياردي شاردان» و «مارشال مكلوان» و «لانج» و «نورثروب فراي» فمنذ أن حاد العقل الأدبي عن طريقه المعهودة نتيجة لانهيار الإيمان بالدين لأكثر من قرن مضى وحتى الآن، وهو يسعى طول الوقت باحثا عما يستعيض به عن ذلك الإيمان المفقود.

إننا كمسلمين ـ ولله الحمد ـ لم نفقد إيماننا لنبحث عن بديل له، ولم تتعرض مجتمعاتنا لتلك الهزات التي تعرضت لها المجتمعات الغربية، فالظروف مختلفة جدا، والسياقات الحضارية والفكرية لا تتماثل أبدا.. فكيف يتطلعون بعد ذلك إلى تنظيم نظرتنا إلى أنفسنا والعالم من حولنا وفق تأسيس فكري غربي معين تلاشى من الغرب نفسه كما طالب أحدهم أخيرا في حماس وتشنج عجيبين ؟!.

هيلين الخال تفتح النار على مجلة شعر ورموزها

أجرت صحيفة الحياة الأحد ١٨ أكتوبر ١٩٩٢م «صفحة الثقافة والفنون» حديثا مع «هيلين الخال» استغرق حلقتين كاملتين، تناولت في الأولى منهما شخصية زوجها «يوسف الخال» عندما كان موظفا في الأمم المتحدة في طرابلس الغرب، وعلاقته بالشعر الأمريكي، كما تناولت الحلقة الثانية علاقاته الشخصية ومرحلة تأسيس مجلة شعر، وكان السؤال الأخير الذي وجه إلى المرأة التي قالت عن زوجها السابق إنه أعلن حربا ضدها حربا حقيقية لم يترك خلالها سلاحا إلا واستعمله، لقد كان آخر الأسئلة يتصل بوجهة نظرها في شعر هذه الشخصية، وكان السؤال على الوجه التالي «مارأيك في شعر يوسف» ؟.

● «اسمح لي ألا أكتفي برأيي فيه، وإنما أن أعطي رأيي الشخصي في شعره. وشعر (أدونيس) والشعر العربي الحديث بشكل عام، في ذلك الوقت. أعتقد أنه كان شعرا بعيدا عن الحياة الواقعية. لا أعرف كيف هو الشعر الحديث الآن، جماعة «شعر» كتبوا شعرا قرأته مترجما غالبا، وهو كما تلقيته لا أستطيع أن أتخيله كونيا أو إنسانيا، لم يكن ذلك الشعر في رأيي يلامس قضايا إنسانية تهم الأمريكي أو الأوروبي فضلا عن العربي، ولاأستطيع أن استثني من هؤلاء إلا محمد الماغوط، فهو الوحيد الذي تجد في شعره شيئا حقيقيا، له صلة بالناس، بالأرض، أما الآخرون، فكان شعرهم خياليا، وميتافيزيقيا ولا تستطيع لمسه، ولا أجد شعر «أدونيس» أفضل من شعر «محمد الماغوط» كذلك الحال بالنسبة إلى أنسى الحاج، أرجو ألا أكون مخطئة، وكلامي ينطبق على شعر قرأته قبل سنوات، أحسست أن ذلك الشعر كان أصحابه يقدمون فيه أسئلة كبيرة، ويصوغون خيالات ومشاعر لا أعتقد أنها كانت حية وحارة، كان شيئا ثقافيا، ربما لأنهم كانوا غارقين في اللغة وكتاباتهم حملت هم البحث اللغوي أكثر مما حملت من تجارب حية.

● هذا رأى زوجة «يوسف الخال» في شعره وشعر رفقائه الذين أكدت أثناء إجابتها أنهم حاولوا فيما بعد التقليل من قيمة أستاذهم، وعملوا على التحرر من مرجعيته بل وتنكروا لمواقفه التي تصفها بأنها كانت إيجابية تجاه هذه الزمرة الحداثية، ورأيها هذا له أهميته لسببين رئيسيين الأول هو أن «هيلين» عاشت مع «الخال» المرحلة الأخصب من حياته، في نيويورك، وطرابلس الغرب وبيروت وعاصرت مرحلة تأسيس مجلة «شعر» في الخمسينات الميلادية كما تشير المقدمة التي كتبها «نوري الجراح» الحياة ١٧ أكتوبر ١٩٩٢م. أما السبب الثاني فهو أن هذه الشخصية التي جاهرت بهذا الرأي الصريح في شعر يوسف الخال ومن حوله من شعراء الحداثة لم تكن بعيدة عن دنيا الفن والشعر ففي الوقت الذي كانت لها اهتماماتها بالفن التشكيلي حيث عملت ناقدة فنية في صحيفة «الديلي ستار» وأعطت دروسا في الجامعة الأمريكية، وافتتحت مركزا يعرض لوحات الفنانين التشكيليين في بيروت سنة ١٩٦٣م وأطلقت عليه اسم «جاليري وآن» كذلك كان لهذه الفنانة التشكيلية اهتماماتها الأدبية فهي تتحدث عن الفرق بين اهتماماتها الشعرية واهتمامات زوجها يوسف الخال. قائلة: «كنت أميل إلى الشعر اليومي، وشعر الصوت الشخصي، مثلا كنت أحب شعر ديلان كومس، وهو في الشعر كتشايكوفسكي في الموسيقى، وفي نيويورك تعرفت إليه، ولم أكن أحب شعر «إزرا باوند» ولا لعبة التناص التي نراها في شعره، ولا أحس أن شعره يعنيني».

● وهذا النقد الموضوعي الذي وجهته «هيلين» إلى شعر «يوسف الخال وأدونيس» واصفة إياه بأنه تنتفي عنه صفة الكونية الإنسانية، وأنه أبعد ما يكون عن ملامسة الواقع الذي يعيشه الإنسان ولهذا نجده يفتقد إلى تلك الروح التي تجعل منه شعرا ينبض بالحياة والحيوية، هذا النقد هو الذي يفسر لنا كيف أن هذا الإنتاج الشعري الذي كان «الخال» ينشره في مجلة «شعر» له وللآخرين من الشعراء الذين يحاولون تقليد نماذج الشعرية لم يكن ليحظى بالحد الأدنى من التواصل مع القارىء العربي، كما يفسر لنا ـ أي نقد هيلين ـ عملية الرفض التي قوبل بها الإنتاج نفسه من قبل القارىء الغربي الذي يرى فيه تقليدا لأشكال يعرفها هذا القارىء على صورتها الأصلية في أدبه الغربي

وبـاسـتـطاعته التواصل معها، وبالتالي فهو يرفض هذه النماذج لأنه يعتبرها مسخا مشوها، ولا يمكن لهذا النوع من الأدب المشوه أو الممسوخ أن يتفاعل مع القضـايا الحية والنابعة من بيئة الشاعر نفسه والتي يسعى الآخر ـ أي القارىء الغربي ـ لمعرفتها أو اكتشافها، وعملية المعرفة أو الكشف هذه تتصل بالبحث عن البديل لما هو موجود في بيئته الفكرية والثقافية، وهذا البديل من المتوقع أن يكون صورة مختلفة كل الاختلاف عما ألفه أو تعود عليه، وخصوصا أن الفرد الأوروبي أصبح ضجرا من الحياة المادية التي يعيشها، ونافرا من انعكاساتها الآلية في فضاءات الشعر والفن، وإن ما يبحث عنه القارىء الغربي هو ذلك النوع من الأدب الذي ينقله إلى عوالم الروح وما تمثله من طهر وصفاء وشفافية.

● إن آراء «هيلين الخـال» حول مؤسس مجلة «شعر» التي توقفت في بداية الستينات الميلادية بسبب عدم قدرتها على التواصل مع القارىء العربي، كما أن آراءهـا الأخـرى في رمـوز شعـراء الحـداثـة جديـرة بالنقـاش والحوار الموضوعيين من كل الدوائر سواء تلك المتحمسة حماسا متطرفا لهذا النوع من الشعر، أو الأخرى التي ترفضه رفضا قاطعا لأسباب وبواعث تتصل برؤيتها لعملية الإبداع الشعري، وما يمكن أن تسهم به في حياة الأمة الفكرية والثقافية إسهاما حقيقيا يجعل منها ذات هوية مستقلة وطابع متفرد وهما الطريق الصحيح إلى أدب كوني ينظر إليه الآخرون نظرة احترام وتقدير وينزلونه تلك المنزلة التي يستحقها وهو ما استطاع الأدب العربي القديم أن يبرهن عليه من خلال تلك الشهادات المتوالية من كبار أدباء الغرب ومفكريه لأنه الأدب الذي استطاع أن يؤثـر تأثيـرا فعالا في مسار الأدب العالمي، ويثرى فنونه المتعددة، ويضيء الجوانب المعتمة منه.

محمد أركون والتيار العلماني

(١)

● حفل المجلد الثالث من مجلة. الأزمنة.. العدد ١٤، فبراير ١٩٨٩م بعدد من الدراسات التاريخية والاجتماعية والأدبية وكان بينها تغطية كاملة عن الندوة التي أقامتها جمعية الصداقة الفرنسية ـ العربية، لمناقشة بعض مسائل الحضور العربي في فرنسا. وكان من جملة المشاركين في هذه الندوة محمد أركون أستاذ تاريخ الفكر الإسلامي الرابع في جامعة باريس الثالثة وقد شارك فيها ببحث عن «المستقبل للخط التنويري».

● تناول «أركون» في بحثه هذا عددا من الموضوعات ذات الصلة بالوجود العربي في فرنسا وإمكانية تفاعله مع الأجواء الثقافية في المجتمع الفرنسي، وقد دعا أركون العرب من هذا المنطلق وفي نزعة علمانية محضة إلى ذلك التفاعل أو ما أسماه بالتبادل الثقافي قائلا: من هنا نستطيع أن نخطط للتبادل الثقافي في كلا الاتجاهين، وليس في اتجاه واحد فقط. فالعرب يمكنهم أن يفيدوا كثيرا من فرنسا، ومن التيارات الفكرية التحررية والجادة في الثقافة الفرنسية، وهنا أشير على وجه الخصوص إلى مسألة العلمنة في فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩م، ويمكن أن ينتهز العرب الفرصة لحل أكبر مشكلة مطروحة على المجتمعات العربية والإسلامية، وهم يحلونها عن طريق توليد فكري تحليلي وتنويري داخل الإسلام والثقافة العربية، وهذا الفكر غير موجود للأسف الشديد حتى اليوم.

● يعترف «أركون» إذا أن الثقافة الإسلامية والفكر العربي يرفضان الفكر التحرري والتيار العلماني، وهو يتأسف على عدم الاستفادة من هذه التيارات الفكرية التي يصفها بأنها جادة ولهذا يتطلع إلى رؤيتها داخل كياننا الإسلامي الذي يختلف كل الاختلاف عن الكيان الفرنسي.

● وليس من الضـروري ـ بمكـان ـ أن يربط «أركون» بين وجود العرب في المجتمعات الغربية وبين انتحالهم لهوية ثقافية غير هويتهم. إن أركون بهذا لا يدعوهم إلى خير سوف يفيدون منه كما يتصور بل يدعوهم إلى الدمار الذي سوف يحطم وجودهم فضلا عن استمداده لأسباب الحياة والقوة.

● إن مسلمي الأمس الذين انفتحـوا على الثقافات الأخرى لم يكونوا بهذه التبعية الفكرية التي يتصورها أركون والذي ينطلق من معايير فكرية تختلف عن المعايير الإسلامية في منطلقاتها ووسائلها. وأهدافها. لقد كان لمسلمي الأمس وجـودهم الخاص الذي أثر بشكل واضح على الأمم الأخرى ولم يرتض ذاته موضعا للتلقي السلبي والانبهار الحضاري المميت وما على مسلمي اليوم ـ إن أرادوا تقدير الأمم الأخرى واحترامها ـ إلا التشبث بكل الأسس التي وجدت في دينهم الحنيف، والاعتزاز بالتراث الفكري الذي خلفه السلف الصالح من أمة الإسلام.

● ولعله من المفيد في هذا الشأن أن نذكر أن المجتمعات اليهودية التي تعيش منذ قرون متعددة في البلاد الغربية، تتعامل مع الحضارة الأوروبية من منطلق الاعتـزاز بالتـراث الديني والفكري الخاص بها، ولا ترتضي التفريط في أقل الأشيـاء «كـاللبـاس والأكل مثلا» وهو ما جعل النظرة الأوروبية إلى التراث اليهودي تتسم دوما بالإكبار والإعجاب.

● فهل لأركون وأمثاله من منظري الفكر العلماني تناول القضايا الفكرية بين الحضارتين الأوروبية والإسلامية بشيء من الدرس العميق الذي لا يعتمد فقط على العاطفة النفسية والتجارب الفردية الخاصة، لأن الأمة لن تجني من وراء هذا العنت الفكري إلا تقويضا لأسسها. ومحوا لمعالمها الخاصة بها. وفناء لها بين الأمم الأخرى التي تحترم القوى، وتحتقر العاجز الضعيف.

* * *

محمد أركون والتيار العلماني
(٢)

● رأينا في الموضوع السابق كيف أن محمد أركون دعا في صراحة تامة إلى مشروع علمنة الفكر الإسلامي تأسيا بالعلمنة التي يعيشها المجتمع الفرنسي منذ ثورة ١٧٨٩م.

● وتكاد تسيطر فكرة الثورة الفرنسية سيطرة كاملة على فكر «أركون» فهو يدعو مُفَكِّري العالم العربي في نفس كلمته التي ألقاها في جمعية الصداقة الفرنسية ـ العربية يدعوهم إلى الاستفادة من هذه الثورة التي يصفها بالتنويرية. والأهم عنده من ذلك كله هو كيف استطاعت هذه الثورة ـ على حد تعبيره ـ الفصل بين العامل الديني والعوامل الأخرى في المجتمع.

● يقول أركون «في هذه المناسبة أود أن أشير إلى حدث تاريخي كبير سيحصل هنا في باريس وهو الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية (١٧٨٩ـ١٩٨٩م) وأتمنى أن يشارك فيها كل المثقفين العرب والمجلات العربية بهذه الطريقة يحصل التفاعل الحر والمعطاء بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية وتفيد إحداهما من الأخرى، ويمكننا استعادة الرمزية الدينية بكل أبعادها في الأديان التوحيدية الثلاثة من أجل إعادة التحديد والتفريق من جديد بين العامل الديني والعامل السياسي. والعالم العربي يفيد كثيرا من هذه العملية، لأن العامل السياسي فيه يتلاعب بالعامل الديني في كل اتجاه. ويسيء بذلك إلى السياسة والدين والمجتمع جميعا، وقد أثرت الثورة الكبرى التي جاءت تتويجا لعصر التنوير على كل أنحاء أوروبا بوصفها مغامرة عقلانية وفتحا لا مثيل له في التاريخ. وينبغي أن تصل آثارها إلى كل العالم المتوسط.

● إن «أركون» بمقولته هذه إما أن يكون جاهلا بطبيعة المجتمع العربي الذي يختلف كل الاختلاف عن المجتمع الفرنسي ولا أظنه كذلك. أو يكون متجاهلا

ويسعى إلى الترويج لفكرة الحضارة المتوسطية التي دعا إليها من قبل الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» حيث أعلن: «أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط».

● وإذا كان طه حسين قد نسي حقائق التاريخ عند دعوته إلى فَرْنَسَة العقلية المصرية، كَأَسْرِ المصريين للويس التاسع ملك فرنسا في أثناء الحروب الصليبية، وأن المصريين أيضا قاوموا جيش «نابليون بونابرت» عندما دخل أرض مصر في أواخر القرن الثامن عشر مما دفع «نابليون» إلى أن يصب نيران مدافعه على الأزهر من على قلعة صلاح الدين.

● إذا كانت عبارات «طه حسين» المتحمسة لثقافة البحر الأبيض المتوسط لم تستطع أن تحجب هذه الحقائق، فإن عبارات «أركون» يدحضها الواقع التاريخي جملة وتفصيلا يدحضها واقع صراع الامبراطورية البيزنطية في شرق أوروبا ضد الدولة العباسية، وصراع امبراطورية شارلمان أو الامبراطورية الرومانية المقدسة في غرب أوروبا ضد الدولة الأموية في الأندلس، كما تدحضها مذابح الصليبيين ضد المسلمين في فلسطين. ومن أشهرها مذبحة المسلمين بالقدس في يوليو ١٠٩٩م التي وصفها «وليم الصوري» - من المؤرخين الصليبيين - قائلا: «إن البلد أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم..» وكتب مؤرخ صليبي يقول: إنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة. وإن دماء القتلى بلغت ركبتيه».

ثم ماذا يقصد «أركون» من عملية التفريق بين العامل الديني والعامل السياسي والذي يمكن للعالم العربي استفادته من الثورة الفرنسية ؟

● ليس هناك من يجهل أنه قد تشكلت في نهاية القرن الثامن عشر وعند قيام الثورة الفرنسية الملامح النهائية للفكر الرأسمالي الذي يقوم على فصل الدين عن الحياة. فهل هذا ما يعنيه أركون بالتحديد ؟ هل يريد أركون أن يحدثنا عن

طبيعة النظام الإسلامي أو يشكك في حقيقة تلاؤمه مع الحياة كنظام شامل لا يقبل التفرقة أو التجزئة.

● إن عبارات أركون تخفي الكثير من دسِّه على التاريخ الإسلامي، وتفضح جهله بالأسس التي يمكن للحضارات أن تلتقي عندها أو قد تختلف، ولا شك في أن طبيعة الفكر الإسلامي أو العربي تختلف في جوهرها وأهدافها عن طبيعة الأفكار التي أفرزتها الثورة الفرنسية والتي يمجدها الفكر الأركوني، هذا الفكر الذي يرتدي ثوب العروبة ويتنفس بروح أبعد ما تكون عن منطلقات الأمة وتراثها.

***

محمد عابد الجابري

بين البرهان والهذيان

● لم يكن محمد عابد الجابري كوكبا لامعا في سماء الفكر الإسلامي والعربي الأصيل حتى يهوي كما نعتته المقالات المتتابعة التي نشرها الدكتور تركي الحمد في صحيفة «الشرق الأوسط» منكرا عليه موقفه من أزمة الخليج والمتمثل في إقراره لذلك الغزو الأحمق والاغتصاب الباطل. ولم يكن قط قوميا ينزع به حماس إلى السير في ركاب الغوغائية والانضواء تحت شعاراتها البراقة كما حاول أن يصنفه ـ ذات مرة ـ الدكتور حسن الهويمل الذي طالب في مقاله الأسبوعي بصحيفة «البلاد» ٢٣ محرم ١٤١٢هـ، بإبداء الأدلة التي نكون بها قادرين على تحديد المسار الفكري حداثيا كان أو يساريا أو ماركسيا لكاتب أو مفكر بعينه. وكانت دعوته تلك مرتبطة بالإعجاب الذي أبداه بالدكتور جابر عصفور «لموضوعيته ومعقوليته واقتداره وسيطرته على الفكرة التي يعالجها وبعده عن الادعاء» وأخيرا هو في الصفوة ـ في نظر الدكتور الهويمل ـ لأنه من أبرز كتاب مجلتي «فصول» و «إبداع».

ولا شك في أن مطلب الدكتور الهويمل ـ بعيدا عن بواعث الإعجاب الذي أظهره تجاه (عصفور) وثنائه على دوريات أدبية لا تخفى حقيقة توجهها على القارىء العربي ـ هذا المطلب له أهميته في تحديد مسار الفكر العربي والوقوف على توجهات الكتّاب العرب الذين يشاركون في بناء ثقافة الأمة وتوجيه دفتها الحضارية. ولكن ما رأي الدكتور الهويمل في أن بعضا من المثقفين العرب يجاهرون ـ دون أن يطالبهم أحد أو تضطرهم المواقف لإبراز هويَّاتهم الثقافية أو الدفاع عنها ـ بماركسيتهم ويساريتهم، ولم تنته تلك المجاهرة حتى بعد أن تبرأ من الشيوعية والاشتراكية منظروها وروادها الحقيقيون من مفكري الغرب ومثقفيه ولعل دكتورنا الكريم لم يفت ذلك الحماس المستميت الذي يبديه غالي شكري، ومحمود أمين العالم، وعبدالعظيم أنيس وغيرهم في الدفاع عن

الماركسية وكأنهم نشأوا في الساحة الحمراء التي تخلصت أخيرا من كل رموز ذلك الماضي المتعفن إلا بقايا من تماثيل لينين وستالين يلعب بها الصبيان ويتلهون بها في أوقات فراغهم، وإنني لطارح أيضا سؤالا في هذا السياق على الدكتور الهويمل وهو: هل نجد فيما يكتبه هؤلاء ومن بينهم الدكتور جابر عصفور «الحداثة أمس واليوم وغدا» لمارشال بيرمان» (Marshall Berman) إبداع ـ العدد الرابع ـ ١٩٩١م، ص٢٧ ـ ٤٢» هل نجد في ما يكتبونه الروح الحقيقة للفكر الإسلامي والتي هي ـ بلا شك ـ حد فاصل يمكننا من خلاله تحديد هوياتهم التي ينطلقون منها وتوجهاتهم الفكرية التي يسعون لتثبيتها ونشرها في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية، وإذا كان الجواب بالنفي وهو الشيء الذي أميل إليه فليعذر الدكتور الهويمل كل لغط يدور حول هذه الشخصيات وكل نقد يحاول كشف ما تنطوي عليه كتاباتهم من مضمون فكري لايخدم تاريخ هذه الأمة ومنطلقاتها الحضارية وتراثها الفكري الذي يجب أن يصان من كل عبث، وتدفع عن ساحته كل تلك المحاولات التي تريد تفسيره وفق الأهواء الباطلة، وهذا حق مشروع لكل أمة ويمكن أن يقام عليه الدليل من خلال تلك العاطفة المتقدة والحماس المتأجج لدى مفكري ومبدعي الأمتين المسيحية واليهودية والذي يصل بهم إلى الدفاع عن تلك الأساطير التي تحفل بها كتبهم الدينية التي امتد إليها العبث وأصابتها عوامل التحريف وهل نحن بحاجة إلى أن نذكر بالرؤى المسيحية الواضحة والمتجسدة في الأعمال الأدبية المشهورة لـ «تاسو» و «دانتي» و «ملتون» وهل من الضروري أن نسوق دليلا على المرجعية الدينية اليهودية في أعمال الروائي «فرانز كافكا» التي كتب بعضها باللغة اليهودية القديمة «اليديشية» كما يظل السؤال مطروحا حول «ت.س. إليوت» المبدع الأمريكي الأصل والإنجليزي الإقامة والثقافة والذي يعجب به رواد الحداثة في عالمنا العربي، فهل فقهنا أن الكاثوليكية المتعصبة كانت خلف معظم أعماله ويشمل ذلك قصيدته المشهورة «الأرض اليباب» وأعود للجابري الذي بدأت مقالتي بالحديث عنه لأذكر الذين انحصر نقدهم له في موقفه من أزمة الخليج بأن ذلك الموقف لا يمكن فصله بأي حال من الأحوال عن مجمل توجهاته الفكرية، وإذا كان هناك نقد يسعى للفصل بين ما كتبه الجابري في منظومته

«نقد العقل العربي» وبين ما اتخذه من موقف مؤيد للغزو العراقي للبلد العربي الكويت فهو نقد لا يمكن أن يصل بنا إلى الحقيقة عن هذا الكاتب الذي ينظر إلى التراث العربي بعينين غربيتين وغريبتين ـ في الوقت نفسه ـ ويحاول أن يشوه وجهه النقي بتلك المناهج المنبثقة عن الفكر الماركسي التي استخدمها في دراساته مثل «البنيوية» وغيرها، وهو كثيرا ما يوظف في دراساته وكان آخرها «العقل السياسي العربي» محدداته وتجلياته، يوظف جملة مفاهيم توظيفا إجرائيا ومن حقول معرفية مختلفة ومتباينة، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وفلسفة اللغة، ومعلوم أن عملية توظيف المفاهيم في الأبحاث الأكاديمية كانت ومازالت تطرح مشاكل علمية تتصل بمصدر هذه المفاهيم وخلفياتها الفلسفية والأيديولوجية، ولم تكن كتابات الجابري عن أزمة الخليج لتخرج عن نسق تلك الرؤية الضيقة والسقيمة التي طبعت كتابات اليسار العربي عموما، وهو ما نجد شواهده عند «عبدالعزيز المقالح» و «عبدالوهاب البياتي» و «محمد برادة» و «كمال أبو ديب» و «جورج طرابيشي» وغيرهم.

وإذا كان الجابري يدعونا علانية في كل كتاب يصدره كما فعل في «العقل السياسي العربي» وفي آخر مؤلفاته «التراث والحداثة» إلى الانتظام الواعي في فكر ابن خلدون، وابن رشد، وابن حزم، والشاطبي وبالتأكيد على مفاهيم البرهان والمدرسة البرهانية، وضرورة الالتزام عند قراءة التراث أو الرجوع إليه بهذه المفاهيم القادرة على بعث الوعي في الأمة والانطلاق بها في المسار الحضاري الكبير، فإنه نفسه أول من خذل هذا البرهان وتنحى عن الأخذ بأحكامه وهو ما يفقده مصداقيته فيما يدعو إليه ويضيف بعدا آخر لضرورة مراجعة ما يقوله ويكتبه.

***

مثقفون عرب ولكن بدون هوية

تحدث الأستاذ الفاضل محمد صلاح الدين في «رؤيته المعاصرة» عن موضوع افتتاح مؤسسات تعليمية أجنبية في بلاد عربية مسلمة تهدف لاستقطاب النخبة القادرة في العالم العربي والإسلامي وتغريب روحها وعقلها(۱) ولا شك في أن الكاتب الكريم قد أصاب الحقيقة في تفسيره للأهداف المعلنة والمضمرة من وراء وجود هذه المؤسسات التي يروج لها على أنها تهدف لتهيئة كوادر علمية لإدارة المشاريع والشؤون المحلية في البلاد التي تتهيأ لأبنائها فرص الدراسة في هذه المؤسسات عن طريق منح وامتيازات خاصة.

● والأمر في نشر الثقافة الأجنبية في بعض البلاد العربية والأفريقية وما يترتب على ذلك في بعض الأحيان من ترسيخ مفاهيم معينة ينطلق منها البعض بقوة وحماس كبيرين نحو تغيير البنيات الثقافية لهذه المجتمعات لا يقتصر فقط على إقامة مثل هذه المؤسسات بل هناك مخطط عام لتهيئة المبتورين من الكُتَّاب والمبدعين عن طريق منحهم الجوائز الثقافية وكذلك إفساح المجال أمامهم للتدريس في أكثر الجامعات شهرة وأرقاها مستوى من حيث الإمكانيات والوسائل العلمية في الوقت الذي تشكو فيه كثير من هذه الجامعات الغربية من السياسة الاقتصادية المتقشفة والمُتَّبعة من قبل حكوماتها والتي تهدف إلى دمج الأقسام المتشابهة وتقليص عدد الأساتذة والمحاضرين فيها، ورفع الرسوم الدراسية على الطلاب الراغبين في الانضمام إلى هذه الجامعات.

● ويكفينا شاهدا حيا في هذه القضية منح الجائزة الوطنية الكبرى للآداب في فرنسا للكاتب الجزائري «كاتب ياسين» عام ١٩٨٦م(٢) كما حصل «الطاهر بن

---

(١) المسلمون العدد (٣٠١) ٢٢ ربيع الآخر ١٤١١هـ.

(٢) انظر مقالة بيار برنار بعنوان «لاتتوهموا كثيرا» الشرق الأوسط عدد ٤٢٣٠ الخميس ٢٨/٦/١٩٩٠م.

جلون» عام ١٩٨٧م على جائزة (الجنكور)[١] ويحظى كتاب آخرون مثل (رشيد بوجدره) و «الطاهر وطّار» و «محمد شكري» برعاية كبيرة من المؤسسات الإعلامية والثقافية في البلاد الغربية، ومع أن هذه الأسماء التي يكتب أصحابها أدبا يستمد مضمونه من المجتمعات العربية وفي أحايين كثيرة بلغة غير عربية، هي أسماء تُعلن بوضوح انتماءها للأيديولوجية الماركسية حتى وإن تخلى الماركسيون أنفسهم عن هذه العقيدة «فكاتب ياسين» صرح بأنه يفتخر بالتسمية التي تطلق عليه وهي «كاتب لينين» وإنه يعتبر هذه التسمية شرفا كبيرا له لأنها تعود لأفكاره اليسارية وقد جاء هذا التصريح ضمن إجابة على أسئلة وجهها له ـ ولعدد آخر من الكتاب في البلاد العربية ـ الكاتبان الفرنسيان «لوك باربولسكو» و «فيليب كاردينال» [٢] حول الإسلام وتطبيقه في المجتمعات العربية وأما «الطاهر وطار» فهو لا يريد أن يحيد قيد أنملة عن الإيمان بالمبدأ القائل (الدين أفيون الشعوب) [٣].

ومثله «رشيد بوجدرة» الذي يرفع عقيرته قائلا: «أنا شيوعي خلافا لكثير من المثقفين والأدباء العرب أصحاب النزعات اليسارية المترددة» ولا يختلف كثيرا عن هذه الفئة «محمد أركون» الذي تنازعه جامعات أجنبية مثل جامعتي لوس أنجلوس ولوفان مع الجامعات الفرنسية الكبرى مع ملاحظة أن اللغة الأساسية للكاتب هي اللغة الفرنسية يصرح «أركون» دون مواربة بأن (الإسلام ليس نظاما للحكم لا تاريخيا ولا عقائديا) ويشتط في أحكامه الجائرة قائلا: إن الدولة الأموية لم تكن إسلامية ومثلها الخلافة العباسية [٤] ويدعو لإعادة النظر في

---

(١) اعلن مؤخرا أن لجنة من عشر شخصيات أدبية ستمنح اول جائزة أدبية بقيمة ٣٠٠ ألف فرنك فرنسي «٥٥ ألف دولار» في الخامس والعشرين من نوفمبر في طولون جنوب شرق فرنسا لعمل إبداعي متوسطي وأوضح الإعلان أن جائزة لوفان الأدبية ستمنح لكاتب فرنسي أو فرنكوفوني يختار الوقائع والشخصيات والمشاهدات في عمله ضمن الإطار المتوسطي ويرأس اللجنة «هيرفي بازان» وتضم في عضويتها الكاتب المغربي الطاهر بن جلون. انظر صحيفة العلم المغربية الجمعة ٢٧ يوليو ١٩٩٠م.

(٢) صدر الكتاب باللغة الفرنسية LISL AM EN QUES رايهم في الإسلام وقامت بنشره دار الساقي بلندن ١٩٨٧م انظر إجابة كاتب ياسين والتي اشتملت عليها صفحات الكتاب ١٩١ ـ ٢٠١ .

(٣) نفس المصدر السابق ص١٧٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ص١٧٢ .

مجموع التقاليد الإسلامية لتوحيدها وكشف الرواسب المتراكمة التي اعترتها[1] وهو يرجع وجود مثل هذه الرواسب لما يسميه بسلطان النص المطلق[2] ومعروف ما يعنيه الكاتب بهذا فهو يشير إلى كتاب الله الكريم القرآن ولا شك في أن عبارات أركون هذه تدل على جهل مركب بالدين الإسلامي ونصوصه ومعرفة أحكامه معرفة حقيقية وذلك للتغريب الذي يتعمق شخصيته فكرا وروحا ومنهجا وهو مع هذا الجهل المطلق والعقلية اليسارية المنغلقة لا يفتأ ينصب نفسه متكلما باسم الإسلام والمسلمين في بعض الندوات التي تعقدها الجامعات الغربية كما حدث ذلك في الندوة التي أقامتها جمعية الصداقة الفرنسية ـ العربية والتي دعا فيها إلى علمنة الإسلام تحت ستار ما سماه بالتبادل الثقافي يقول أركون في تلك الندوة: من هنا نستطيع أن نخطط للتبادل الثقافي في كلا الاتجاهين وليس في اتجاه واحد فقط فالعرب يمكنهم أن يفيدوا كثيرا من فرنسا ومن التيارات الفكرية والتحررية والجادة في الثقافية الفرنسية وهنا أشير على وجه الخصوص إلى مسألة العلمنة في فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩م ويمكن أن ينتهز العرب الفرصة لحل أكبر مشكلة مطروحة على المجتمعات العربية والإسلامية وهم يحلونها عن طريق توليد فكري تحليلي وتنويري داخل الإسلام والثقافة العربية وهذا الفكر غير موجود للأسف حتى اليوم[3].

يعترف ـ إذن ـ أركون بأن الثقافة الإسلامية والفكر العربي يرفضان الفكر التحرري والتيار العلماني وهو يتأسف على عدم الاستفادة من هذه التيارات الفكرية التي يصفها بأنها جادة ولهذا يتطلع إلى رؤيتها داخل كياننا الإسلامي الذي يختلف كل الاختلاف عن الكيان الغربي.

● وليس من الضروري ـ بمكان ـ أن يربط أركون بين وجود العرب في المجتمعات الغربية وبين انتحالهم لهوية ثقافية غير هويتهم وأركون بهذا ليس يدعوهم إلى خير سوف يفيدون منه كما يتصور بل هو يدفع بهم ـ بدعوته هذه

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٥٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ص١٤٦ .

(٣) مجلة الأزمنة المجلد الثالث العدد ١٤، فبراير ١٩٨٩م.

ـ إلى الدمار الذي يحطم وجودهم فضلا عن استمداده لأسباب الحياة والقوة.

إن مسلمي الأمس الذين انفتحـوا على الثقافات الأخرى لم يكونوا بهذه التبعية الفكرية التي يتصورها أركون والذي ينطلق من معايير فكرية تختلف عن المعايير الإسلامية في منطلقاتها ووسائلها لقد كان لمسلمي الأمس وجودهم الخـاص الذي أثر بشكل واضح على الأمم الأخرى ولم يرتض ذاته موضعا للتلقي السلبي والانبهار الحضاري المميت وما على مسلمي اليوم ـ إن أرادوا تقدير الأمم الأخرى واحترامها ـ إلا التشبث بكل الأسس التي وجدت في دينهم الحنيف والاعتزاز بالتراث الفكري الذي خلفه السلف الصالح من أمة الإسلام.

● ولعله من المفيد في هذا الشأن أن نذكر أن المجتمعات اليهودية التي تعيش منذ قرون متعددة في البلاد الغربية تتعامل مع الحضارة الأوروبية من منطلق الاعتـزاز بالتراث الديني والفكري الخاص بها، هذا التراث الذي ربط رئيس اتحاد الأدباء العبريين «حاييم هزان» بينه وبين وجود الشعب اليهودي في قوله: إن عبقرية الشعب اليهودي تكمن في ذاكرته التي ظلت تعي على امتداد عشرين قرنا كونه وحدة غير قابلة للتفتت [1] بل إن هذه المجتمعات اليهودية لا ترضى التفريط في أقل الأشياء كاللباس والأكل مثلا وهو ما جعل النظرة الأوروبية إلى التراث اليهودي تتسم دوما بالإكبار والإعجاب [2] .

● ولا يكتفي أركون بهذا التناول الذي يحاول الربط بين أمتين أو حضارتين تختلفان جذريا كل الاختلاف ولا يمكن قياس واحدة منهما على الأخرى لأن الحضارة نظام كامل يشمل وحدات هامة مثل التصور العقدي للكون والسلوك الاجتماعي والنظام الاقتصادي ولا يمكن أن نتصور بهذه السهولة انتزاع وحدة من هذه الوحدات لنستنبتها في أرض غير أرضها وبيئة تتباين عن بيئتها وسياق اجتمـاعي غير سياقها وسوف تكون إلى الشذوذ والغرابة أقرب منها إلى أي شيء آخر.

---

(١) انظر عبدالله عبدالجبار ـ الغزو الفكري في العالم العربي المكتبة الصغيرة، ط١، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، ص٤٣ .

(٢) انظر عاصم حمدان، محمد أركون والتيار العلماني صحيفة المدينة المنورة العدد «٧٩٤١» ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ.

● نعم لم يكتف بذلك بل أراد أن يجعل من نفسه مفسرا كبيرا وفقيها مجتهدا يفسر آيات الله على هواه ويتناول كتاب الله الكريم من مفهوم النص المفتوح القابل للقراءات المتعددة وهذا يُستدل به على خلفيته الفكرية المتشبعة بالمذاهب الأدبية الحديثة مثل البنيوية وغيرها ولكنه يشير إلى ظاهرة خطيرة يجب التنبه إليها والتحذير منها لأنه إذا اقتحم ميدان دراسات القرآن من ينتمي إلى الإسلام باسمه وتجرأ على قدسيته وشكك في مصدره الإلهي وغمز ولمز في قضايا إعجازه فإن ذلك سوف يكون حافزا لغيره من المسلمين في التنفيس عن أحقادهم الدفينة من خلال جعل موضوع الدراسات القرآنية ميدانا مفتوحا وحمى مباحا يدخله من يشاء مفسرا على هواه أو انطلاقا من تصوراته الخاصة ودلالاته ومقاصده ومعانيه.

● يقول أركون في الفصل الأول من هذا الكتاب وتحت عنوان مفهوم كلام الله إن تعريفنا القرآن يتيح لنا دراسة مفهوم كلام الله باعتباره موضوعا لغويا، وبذا نتساءل ما هي السبل اللغوية والأدبية بالمعنى الصحيح التي يشيد بها النص القرآني بنية علاقة إدراك ـ شعور مرتكز إلى مفهوم إله حي مبدع متعال. ومن الثابت المعلوم جدا في الواقع أن معاصري «محمد» قد تأثروا وسرعان ما رضخوا للشكل الخارق وللكلام المبلغ باسم الله، والقرآن ذاته يقدم الحاصل الأدبي لهذا الكلام على أنه لا يقلد(١).

● وأول ما نلاحظه بوضوح على هذا التعريف «الأركوني» هو تعامله مع القرآن على أنه نص لغوي ثم يجعل موضوع التأثر بهذا الكلام هو السبب في الرضوخ إلى أحكامه نافيا أن مسلمي العصر الأول كانوا يناقشون ـ كما تثبت كتب السيرة ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جميع المسائل والأحكام وكذلك فعلوا مع أصحابه ـ رضوان الله عليهم.

● ثم يحدد موقفه من مصدر القرآن عندما يقول المبلغ باسم الله وليرجع أركون

---

(١) انظر محمد أركون والفكر العربي ترجمة الدكتور عادل العوا «منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس» ط٤، ١٩٨٦م، ص٣٣ .

إلى القرآن إن كان بإمكانه قراءته لأن القرآن يتأبى على ذوي النفوس السقيمة والقلوب الزائغة ليرجع ويقرأ قراءة واعية تلك الآيات التي نزلت في تحذير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الميل إلى آراء المشركين وعتابه ونهيه عن معاودة مسائل كان قد اجتهد فيها مثل استغفاره لعبد الله بن أبي بن سلول وهذه مسائل يمكن الرجوع فيها إلى كتب دراسة القرآن وإعجازه إلا أنه يمكننا القول ـ في هذا السياق ـ أن بعضا من المستشرقين لم يملك إزاء هذه الشواهد الدالة على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من وضع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه إلا التصديق بمعجزته الربانية ومصدره الإلهي.

● ولقد بنى أركون على هذه المقدمة المتهافتة نتيجة هي أشد تهافتا من سابقتها وهي أن قضية الإعجاز القرآني قد فرضت على المسلمين[1] دون حول منهم ولا قوة.

● لقد نزل القرآن أول ما نزل في بيئة لم تكن تتعاطف مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل إنها تحاربه وتناصبه العداء وهي على الرغم من امتلاكها لناصية البيان العربي الذي لا يفقهه أركون بعد أن استعجم لسانه وقلبه ـ معا ـ هي على الرغم من كل الحيثيات السابقة كانت تذهب إلى فناء الكعبة لتسترق السمع إلى نبي الهدى وهو يرتل القرآن فلا تلبث أن تستمرىء ذلك السماع وتعاوده مرات ومرات ولم يقل واحد منهم ـ عندئذ ـ وهم في موقف المقاومة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته إن ذلك التأثير الغريب الذي تسلل إلى نفوسهم وتركها حيرى كان مفروضا عليهم وكيف يفرض الضعيف على القوي والخائف على الآمن والفرد على الأمة الكثيرة العدد والعدة بل لقد ظل موضوع هذا التأثير القرآني المرتبط بإعجازه على كل من ألقى إليه السمع ولو كان هذا السمع عابرا ظل بابا من أبواب الدخول في هذا الدين حتى عندما فقدت الدولة الإسلامية كيانها السياسي وسلطتها الرسمية فقد حدثني أستاذنا الفاضل الدكتور مصطفى عبد الواحد أن عددا كبيرا من الإنجليز الذين دخلوا في

---

(١) المصدر السابق ص٣٣ .

الإسلام كان صوت المقرىء المعروف الشيخ محمد رفعت ـ رحمه الله ـ في ترتيله للقرآن سببا في هدايتهم إلى هذا الدين الباقي ما بقيت الأرض والسماء فأي فرض هذا الذي يذهب إليه أركون وأية دعوة باطلة تنقضها وقائع التاريخ في الماضي وشواهد حاضرنا القائم ؟!

● ولعل الغريب جدا في احتفاء بعض المؤسسات الغربية الثقافية منها والإعلامية بهؤلاء الكتاب هو عدم حيلولة توجهاتهم الماركسية دون إعطائهم ما يطمحون إليه من مناصب ويبحثون عنه من جوائز وتسهيل السبل أمام نشر مؤلفاتهم وترجمتها إلى لغات عدة. كما حصل بالنسبة إلى إنتاج الكاتب «محمد شكري» الذي ترجمت أعماله « الخبز الحافي، الشطار، مجنون الورد، والخيمة» إلى بعض اللغات العالمية مثل الإيطالية والألمانية والكاطالاتية والأسبانية [(١)] مع أن هذه المؤسسات ـ نفسها ـ هي التي تضع العراقيل ولا تتورع عن مخالفة القوانين والأعراف في سبيل مقاومة الكتابات الصادرة عن كتاب ينتمون حقيقة للمجتمعات الغربية جنسا وثقافة والتي يتوقع من أصحابها التوجه الماركسي أو النزعة اليسارية كما حدث مع الكاتب المعروف آرثر ميللر ARTHUR MILLER [(٢)] والممثل الكوميدي تشارلي شابلن الذي هوجم واتهم بميوله الشيوعية من قبل الإعلام الغربي مما كان سببا وراء نزوحه إلى سويسرا في عام ١٩٥٢م حيث استقر حتى مماته في ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧م [(٣)] وهو الأمر نفسه الذي وقع مع الكاتب البريطاني المعروف كين ليفنقستون LIVINGSTONE [(٤)] الذي أزيح من منصبه كرئيس لبلدية لندن سنة ١٩٨٦م وكان اتجاهه اليساري سببا رئيسيا وراء إزاحته من هذا المركز الهام ولا يبتعد كثيرا موقف الإعلام في بلاده

---

(١) انظر محمد شكري استمرار العالمية صحيفة اتحاد المغربية الخميس ٢٨/١١/١٤١٠هـ.

(٢) انظر هذا الكتاب :
20Th CENTURY LITERARY CRITICTSM "EDITED BY DAVID - LODGE" LONGMAN LONDON NEWYORK 1984 P.P. 456 - 63

(٣) انظر مقالة الدكتور جمال عبدالناصر وتشارلي شابلن من التصعلك إلى الرمزية السيكولوجية «مجلة القاهرة العدد ١٠٥، ٢٢ ذو القعدة ١٤١٠هـ ص٤٤ ـ ٤٩ .

(٤) WHO'S AFRAID OF MARGARET THATCHER? INPRAISE OF SOCIALISM LONDON 1984

من النموذج الماركسي الآخر وهو الكاتب «طارق علي» أحد أصدقاء سلمان رشدي والذي حاول الانضمام إلى حزب العمال البريطاني في بداية الثمانينيات الميلادية ولكن رئيس الحزب آنذاك والصحافي المعروف «مايكل فووت» رفض طلبـة في الانضمـام مبينـا له أن نزعته الماركسية غير مقبولة في المجتمع البريطاني مما يسبب خسارة للحزب وفقدانا لشعبيته بين الناس مع أن حزب العمـال عرف بتبنيـه للمنـطلقـات اليسـارية في بعض طروحاته الاجتماعية والاقتصادية ولعل في ضوء هذه الشواهد الأخيرة التي سقناها للتدليل على موقف المؤسسات الغربية من التوجهات الماركسية وهي التي تعكس صرامة ووضوح الموقف الغربي من هذه التوجهات المتحجرة والمتعفنة لَعَلَّه يحق لنا أن نتسـاءل لمـاذا هذه المؤسسات نفسها والواعية بكل مواقفها وممارساتها تحيط بعض الكتاب العرب الغارقين إلى حد رؤوسهم وأرجلهم في مستنقعات الفكر الماركسي والفارضين على أفكارهم سياجا من الأيديولوجيات الشكلية والميتة ـ تحيطهم بهذه الهالة الإعلامية التي لا يتورعون في غمرة الانبهار بها عن أن ينالوا من الدين والثقافة التي ينتمون إليها ـ بأسمائهم فقط ـ في زمن استعـادت فيـه أوروبـا شرقهـا وغـربها ثقتها بالدين وأكدت على احترامها للمقدسات والشعائر والعبادات.

***

المحتويات

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث
الدين والإبداع

الباب الرابع
نحن والاستلاب الثقافي

الباب الخامس
موقفنا منهم، وموقفهم منا، والموقفان بإزاء الحضارة

الموضوع	الصفحة

الباب السادس

الحفاظ على الهوية

إصدارات
نادي
المدينة المنورة
الأدبي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	ذكريات طفل وديع	عبد العزيز الربيع
٢	الشعر الحديث في الحجاز	عبد الرحيم أبو بكر
٣	شعراء من أرض عبقر جـ ١	د. محمد العيد الخطراوي
٤	شعراء من أرض عبقر جـ ٢	د. محمد العيد الخطراوي
٥	في ظلال السماء	محمد هاشم رشيد
٦	على دروب الشمس	محمد هاشم رشيد
٧	على ضفاف العقيق	محمد هاشم رشيد
٨	همسات في أذن الليل	د. محمد العيد الخطراوي
٩	غناء الجرح	د. محمد العيد الخطراوي
١٠	ترانيم العودة	ناجي محمد حسن وفوزان الحجيلي
١١	الفيصليات	عبد الحميد ربيع
١٢	رعاية الشباب في الإسلام	عبد العزيز الربيع
١٣	جرح الإباء	أحمد فرح عقيلان
١٤	أضواء على حقائق	محمد المجذوب
١٥	بيت وشاعر	خالد يوسف
١٦	الحفل المسرحى	إعلامي عن النادي
١٧	جداول وينابيع	عبد الرحمن رفة
١٨	الجناحان الخالدان	محمد هاشم رشيد
١٩	على أطلال إرم	محمد هاشم رشيد
٢٠	ثلاثة أعوام مع مسابقة القرآن الكريم	دخيل الله الحيدرى – ووهبة الحبالى

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢١	رسالة إلى ليلى	أحمد فرج العقيلان
٢٢	في رحاب الجهاد المقدس	إبراهيم العياشي
٢٣	بحث الشيخ محمد بن عبد الوهاب	مسلم الجهني
٢٤	في موكب الضياء	أبو زيد إبراهيم سيد
٢٥	الفنون التعبيرية	عبد العزيز الربيع
٢٦	اباريق النور	محمد عادل سليمان
٢٧	في غيابة الجب	على الفقي
٢٨	المدينة المنورة في التاريخ	عبد السلام هاشم حافظ
٢٩	ذكريات طفل وديع ط ٢	عبد العزيز الربيع
٣٠	رعاية الشباب في الإسلام ط ٢	عبد العزيز الربيع
٣١	حروف في الرماد	محمد صالح البليهشي
٣٢	هموم عربية	أبو عبد الرحمن الظاهري
٣٣	المدينة اليوم	محمد صالح البليهشي
٣٤	لمحات عن حياة الربيع	محمد صالح البليهشي
٣٥	ضفاف الذكريات	مجدى خاشقجي
٣٦	مبضع الجراح	إبراهيم العياشي
٣٧	صور وذكريات عن المدينة المنورة	عثمان حافظ
٣٨	قصص لا تنسى	محمد المجذوب
٣٩	تحفة اللبيب	محمد المجذوب
٤٠	مع المجاهدين في باكستان	محمد المجذوب
٤١	المجموعة الشعرية الكاملة	محمد عبد السلام هاشم حافظ
٤٢	مسيرة ٨ اعوام لنادى المدينة المنورة الأدبى	محمد صالح البليهشي
٤٣	طيبة وفنها الرفيع	م. حاتم طه
٤٤	أيسر التفاسير جـ ١	أبو بكر الجزائري
٤٥	أيسر التفاسير جـ ٢	أبو بكر الجزائري

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٦	أيسر التفاسير جـ ٣	أبو بكر الجزائري
٤٧	أيسر التفاسير جـ ٤	أبو بكر الجزائري
٤٨	الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية	د. عبد الله الحامد
٤٩	شاعر الخليج	عبد الله أحمد الشباط
٥٠	أدب ونقد	محمد المجذوب
٥١	ردود ومناقشات	محمد المجذوب
٥٢	دعوة سليمان عليه السلام	علي مني عشكان
٥٣	حروف من دفتر الأشواق	د. محمد العيد الخطراوي
٥٤	دموع وكبرياء	حسن مصطفى صيرفي
٥٥	في الفكر والأدب (دراسات وذكريات)	د. حسن فهد الهويمل
٥٦	دراسات قرآنية المجلد الأول	نادي المدينة المنورة الأدبي
٥٧	الأخطبوط (قصة)	ناجي محمد حسن عبد القادر
٥٨	طيبة في عيون فنان تشكيلي	فؤاد مغربل
٥٩	تاريخ معالم المدينة المنورة قديما وحديثا	أسعد ياسين الخياري
٦٠	تفاصيل في خارطة الطقس	د. محمد العيد الخطراوي
٦١	وداعاً أيها الحزن (رواية)	غالب حمزة أبو الفرج
٦٢	نصوص مختارة	محمد المجذوب
٦٣	الأعمال الشعرية الكاملة المجلد الأول	محمد هاشم رشيد
٦٤	الولوج من ثقب إبرة	علي عبد الفتاح السعيد
٦٥	من بدائع الأدب الإسلامي	د. محمد سعد الدبل
٦٦	المنظمة الدولية للشرطة الجنائية، الأنتربول ودورها في مكافحة الجرائم الدولية للمخدرات	النقيب محمد حسن زهير آل شقلوت العمري
٦٧	وقفات على الماء	إبراهيم عمر صعابي
٦٨	شعر ضياء الدين رجب بين الموقف والصياغة	عبد الله أحمد باقازي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٦٩	المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ	د. عاصم حمدان علي حمدان
٧٠	التعليم الأهلي فى المدينة المنورة من (١٣٤٤) إلى (١٤٠٨) هـ دراسة تاريخية وصفية	دخيل الله عبد الله الحيدرى
٧١	المجموعة الشعرية الكاملة جـ ٢	عبد السلام محمد هاشم حافظ
٧٢	آلام وأحلام	محمد المجذوب
٧٣	سلاح الكلمة الشاعرة، إسهام النادي الأدبي خلال ازمة الخليج	النادي الأدبي بالمدينة
٧٤	تراثنا المخطوط فى العلوم التطبيقية والبحتة	مصطفى عمار منلا
٧٥	وقفات فى حرب الخليج	محمد بن صنيتان
٧٦	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الأول	احمد سعيد سلم
٧٧	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثانى	احمد سعيد سلم
٧٨	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثالث	احمد سعيد سلم
٧٩	ملاعبة الصيد	أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهرى
٨٠	فى ذاكرة الصحراء دراسات نقدية فى نصوص شعرية سعودية معاصرة	محمد إبراهيم الدبيسى
٨١	ملف العقيق المجلد الأول	يصدر عن النادي
٨٢	آفاق شعرية (قراءة لما وراء النص)	محمد محمود جادالله
٨٣	اللمعة في صنعة الشعر	د. صلاح الدين محمد الهادي
٨٤	ملف العقيق المجلد الثاني	يصدر عن النادي
٨٥	فن الرماية بالسهام الحديثة	د. عدنان درويش جلون
٨٦	ملف العقيق المجلد الثالث	يصدر عن النادي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٨٧	المستدرك في شعر بني عامر من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج١ «الدراسة الموضوعية والفنية»	د. عبدالرحمن محمد الوصيفي
٨٨	المستدرك في شعر بني عامر من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج٢ «الجمع والتحقيق»	د. عبدالرحمن محمد الوصيفي
٨٩	نحن والآخر	د. عاصم حمدان

رقم الإيداع : ١٥/٢٥٣٥
ردمك : ٥ ـ ١٤ ـ ٦١٨ ـ ٩٩٦٠

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دارالعلم) بجدة
ص ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية

د. عاصم حمدان علي حمدان

- ولِدَ في المدينة المنورة عام ١٣٧٣هـ.
- أكمل تَعْليمَهُ الابتدائي والمتوسط والثانوي بالمدينة المنورة.
- تحصَّلَ على بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها «مرتبة الشرف الأولى» من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٣٩٦هـ.
- دَرَسَ في جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة، وحَصَلَ على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة مانشستر ١٤٠٦هـ.
- يَعْمَلُ الآن أستاذاً مُشَاركاً بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

صدر له من المؤلفات :

- «التآمر الصهيوني ـ الصَّليبي على الإسلام» في سلسلة دعوة الحق، الصَّادرة عن رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠٩هـ.
- «المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ» نادي المدينة الأدبي ١٤١٢هـ.
- «حارة الأغوات» (صورةٌ أدبيةٌ للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري) دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٣هـ.
- حارةُ المنَاخَة «صورةٌ أدبيةٌ للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري» دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٤هـ.
- له عددٌ من البحوث المنشورة في مجلات علمية مُتخصِّصة.
- له مشاركات في الكتابة في عدد من الصُّحف والمجلات المحلية.

رقم الإيداع : ١٥/٢٥٣٥
ردمك : ٥ ـ ١٤ ـ ٦١٨ ـ ٩٩٦٠

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) بجدة
ص ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية